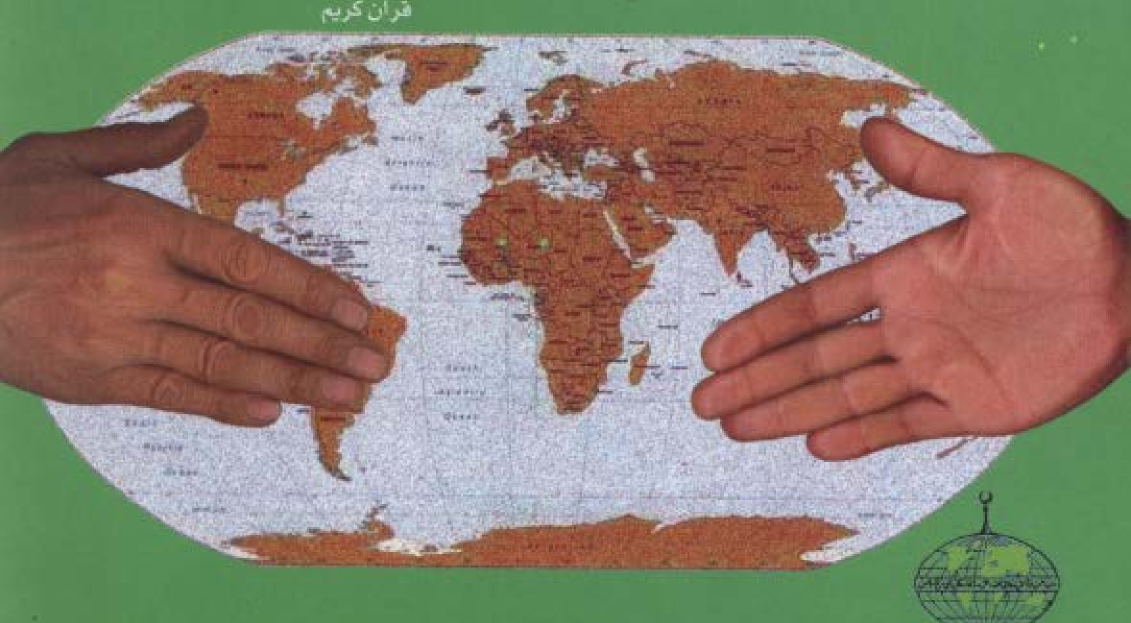
الدكتور حسن الباش

منهج التعارف الإنساني في الإسلام

(نحو قواسم مشتركة بين الشعوب)

وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا
إن أكرمكم عند الله أتقاكم

قرآن كريم



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

منهج التعارف الإنساني في الإسلام

(نحو قواسم مشتركة بين الشعوب)

الطبعة الأولى

1373 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ 2005 مسيحي



منشورات

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الجماهيرية العظمى ـ طرابلس

منهج التعارف الإنساني في الإسلام

(نحو قواسم مشتركة بين الشعوب)

د. حسن الباش



منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التعارف مبدأ إسلامي ورؤية للمستقبل الإنساني. من هذه القاعدة الراسخة نقدم هذا الكتاب.

فالإنسانية بحاجة إلى التعارف نطرح هذا مباشرة لأننا نرى أن الإنسانية اليوم قد وصلت حافة الهاوية بعلاقاتها. وبدل أن تترفع عن العنصرية والاستعلاء والأنانية سقطت فيها، وسلمت حياتها لهواة القتل والاحتلال وإبادة الجنس البشري.

ما الذي يضمن وجود علاقات إنسانية يتساوى فيها البشر؟ كيف يصيغ المفكرون قوانين إنسانية يلتزم بها أبناء الأمم والشعوب؟ وتلبي طموحاتهم في المساواة والعدالة والشبع والصحة والحقوق جميعها؟

وعندما نقول: التعارف مبدأ إسلامي واستراتيجية للمستقبل الإنساني، فإننا نفهم تماماً دور الرسالة الإسلامية الإنسانية، الدور الذي لم يتوقف ولن يتوقف ولا ينقطع فهو مستمد من روح القرآن الكريم وتدبير خالق هذا الكون وجميع الأكوان.

دعوة القرآن الكريم للتعارف تعني تماماً إيجاد القواسم المشتركة بين بني البشر دعوة هي تنبيه واضح لهذا المخلوق، حتى يدرك طبيعته العقلية والنفسية أولاً، ثم طبيعته الإنسانية الشمولية ثانياً ثم دوره في الاستخلاف وتعمير الدنيا ثالثاً.

وعبر قرون وقرون لم يتنبه أبناء البشرية لهذه الدعوة القرآنية الإلهية فوقعوا في الحروب، والفتن، والقتل والتدمير. دمروا أنفسهم بأيديهم، تلبية لنظريات العنصرية والفوقية تلبية لفلسفات وضعية صنعتها الأهواء والميول الانحرافية الشاذة.

لقد كانت وما زالت الدعوة للتعارف قائمة حية، تدعو الإنسانية كلها لفهم آلية التعامل بين الشعوب والأمم، وهي غاية وهدف على المستوى الحياتي الدنيوي وهي غاية الغايات على مستوى رضا الله سبحانه والآخرة والسعادة الأبدية الخالدة.

يريد الله لخلقه أن يتعايشوا، ويتحاوروا، لا أن يعتدوا ويبيدوا، ويحتل بعضهم بعضاً، يريد لبني البشرية أن يؤمنوا وأن يأمنوا على أرواحهم من توحش القتل والاغتصاب والسلب والنهب.

فهو يأمر بعدم الاعتداء وإزهاق الأرواح بلا مبرر أو حجة أو سبب، وطالما أنه كرم بني آدم، فلماذا تمتهن كرامة الإنسان العاقل؟ وطالما أن الله سبحانه سخّر لهذه البشرية البر والبحر والنبات والحيوان والفضاء كي تخدمه وتحقق له غاياته فلماذا يصبح هو مسخراً مستعبداً من قبل أخيه الإنسان؟

هل تقبل الإنسانية أن ينقلب الإنسان المكرّم من ربه إلى حيوان مسخّر مستعبد؟ هل تقبل البشرية أن تنقلب مهمة هذا الإنسان إلى وباء وبلاء عليه وعلى حياته وطموحاته؟

حقيقة، إنها مأساة البشرية، أن تبقى العيون عمياء، والآذان صماء، عن فهم الدعوة القرآنية للتعارف وإحلال التواصل محل القطيعة والاحترام المتبادل محل التنازع والفوقية والعنصرية وتدمير البشرية وحضارتها.

إنه ليس من قبيل الصدفة أن توجد جماعات وتجمعات صغيرة ومنحرفة، تقف في وجه التعارف الإنساني، فالبشرية هي هي فيها من الفطرة ما هو صحيح ومستقيم وفيها من الاكتساب ما هو قبيح وضال.

لماذا تقف تلك الجماعات والتجمعات ضد التعارف الإنساني؟ ألأنّ التعارف يضر بمصالحها الدنيوية؟ أم أنها نتيجة موقف معادٍ للقرآن الكريم والإسلام والمسلمين؟ أم أنها لا تعرف أن تعيش أو تحيا إلا من خلال تناقضات البشر وحقد أفرادهم على بعضهم بعضاً؟

لقد ثبت عبر التاريخ أن هناك جماعات محددة، فتكت فتكاً ذريعاً بكل محاولات التعارف الإنساني والتواصل البشري القائم على احترام الإنسان كإنسان. وهي الجماعات نفسها اليوم تحاول بكل أساليبها الخبيثة أن تزرع الفتن بين الشعوب. وكلما لاح في الأفق تقارب بين شعب وشعب، دسّت هذه الجماعات مؤامراتها ودسائسها محاولة إفشاله بل وإشعال النار فيه.

لقد وصف القرآن الكريم هذه الفئات بقوله:

﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (المائدة: 64).

إذاً، لقد ارتبط كرههم للوفاق الإنساني والتعارف البشري بالفساد والإفساد، فهم يريدون أن يتعيشوا على حساب دماء الشعوب، وتضاربها، وإهلاكها بعضها بعضاً. فهذه هي طبيعتهم. جبلوا نفوسهم عليها، فبدل أن تكون اكتساباً يمكن تغييره أصبحت منسجمة في طبيعتهم الشاذة. فهم لا يفارقونها ولا تفارقهم. لأنهم باعوا أنفسهم للشيطان الذي أساس عمله اختراع الفتن، وزرع الأحقاد بين أبناء البشرية.

لقد سجل التاريخ الإسلامي عداءهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعداءهم للقرآن الكريم، لذلك حاولوا دون توقف، أن يشعلوا نار الفتن والتباعد بين المسلمين أنفسهم، وبين المسلمين وغيرهم من الأمم والشعوب.

لقد بين الله سبحانه، لأمة الإسلام مبدأ التعارف، باعتباره قانوناً إلهياً راسخاً، ودعوة واضحة لكل عاقل فكر في أساس الخلق وتناسله وتكاثره.

وأوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم، من خلال أحاديثه ومعاهداته وحواراته وسلوكه النبوي مبدأ التعارف بين الناس. وعلّم أمته كيف تحاور بصدق دون مواربة أو خبث أو التواء. فكسب أصحابه الأولون ودّ الناس، وجعلوا أمماً في الأرض تُقبِل على دين الله الحنيف دون إكراه أو ضغط أو إجبار. وسار المسلمون على هذا النهج حتى عندما ضعفوا، وضعفت دولتهم، لم يكن دعاة الإسلام في آسيا وأفريقيا يتوقفون عن الدعوة، ويقدمون للشعوب والأمم نماذج راقية في السلوك والعمل والحوار. فهم صادقون محبون، وليسوا كذابين مواربين أو منافقين أو حاقدين أو متآمرين. لذا، نرى اليوم مئات الملايين من المسلمين في أندونيسيا وماليزيا وقارة أفريقيا وآسيا وأوروبا وأميركا.

إن أمة الإسلام تؤمن بطريق التعارف بين أبناء البشرية، لكن هذه الأمة تفهم تماماً كيف يكون هذا التعارف. فالتعارف حوار العقول والنفوس، وحوار التوجهات والمنغصات والمعوقات. الحوار الذي يستمع أطرافه لبعضهم، فيحترمون الآراء والمعاناة والتوجهات.

لا أحد يصادر رأي أحد، ولا أحد يفرض وجهة نظره على الآخر فرضاً. وإذا كانت أمة الإسلام تدعو للتعارف والحوار، فإنها في الوقت نفسه تحرص على أن الهوية التي تتمتع بها، وتنتمي لها، هي هوية اختارها الله سبحانه لها، فهي لا تذوب ولا تُذوَّب ولا تتنازل عن سماتها.

يقول تعالى:

﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (الحج: 78).

فمهمة الأمة أن تعرّف البشرية طريق سعادتها في الدنيا والآخرة، لا أن تنطوي على نفسها، وتتقوقع داخل أسوار نفسية عازلة أو معزولة. ولعل هذه المهمة التي تكلفت بها الأمة، تهدف دوماً لإيجاد قواسم فكرية ونفسية واجتماعية بين الشعوب.

فما من شعب إلا ويعاني من مشاكل، وما من شعب إلا وله تجربة نفسية واجتماعية، فالتعارف يعطي ويأخذ، يفيد ويستفيد، وكم من أمة أفادت واستفادت من تجربة أمة أخرى في قضائها وأحكامها وعلمها وفلسفتها. وكم من أمة أعجبت بفنون أمة أخرى فاستفادت منها وهضمت ثقافتها. فجاء عمرانها وجاءت فنونها مستوحية من عمران غيرها وفنونها.

فلمَ أيضاً لا يكون التعارف تجاذباً وتقارباً وتواصلاً، وليس تناحراً وتباعداً وتقاطعاً؟ لم لا يكون انسجاماً لمصلحة الجميع ولتقدم الجميع من أبناء الإنسانية؟

إنّ التعارف يقرب المسافات الفكرية والنفسية، يلتقي الجميع عند نقطة يحبها الجميع، فالخير خير مهما حاول بعضهم أن يقلل من مقاييسه هنا ويكثر من مقاييسه هناك.

والحرية حرية، مهما حاول بعضهم أن يحصر فهمها على فئة دون فئة وشعب دون شعب.

وإذا ظن بعض المتنفذين في إدارات بعض الدول العظمى أن دعوتنا للتعارف والحوار تنازل عن مبادئنا فهو واهم. فلا يظنوا أن دعوة هذه الأمة للتعارف تعني بشكل من الأشكال أن لدينا استعداداً للتنازل عن موروثنا وكرامتنا وهويتنا، فالأمة تدعو للحوار والتعارف، وهي في الوقت نفسه تؤمن بقدسية عقيدتها وكرامة شخصيتها ونصاعة تاريخها، ومهمة دعوتها وأفكارها ولغتها.

ولذلك، فنحن كأبناء أمة مسلمة ندرك أن آلية أي تعارف تقوم على التكافؤ والتساوي، وكلٌ من المتعارفين، عليه واجب مبدئي حتى ينجح التعارف والحوار، عليه أن يتجرد من الأنا المضخمة والظن بالأفضلية. يحاور بشفافية ووضوح فكلٌ يطرح ما في داخله من فهم للعقيدة، من تصور لأفضل الحلول وأنجحها لإنقاذ البشرية من هذا الانحدار، والمرض والفقر والجهل واسترداد الحقوق.

إن آليات التعارف تفرض على الجميع فهم المبادئ الأساسية لحق الشعوب في حياة كريمة فوق أرضها. لا تطرد منها، ولا تشرد ولا تسلب خيراتها ولا تُسترهب وإلا كيف تستطيع أي أمة أن تطرح نفسها كأمة تحب التعارف، وهي مسلوبة من أعز حقوقها النفسية والعقلية والتاريخية والوطنية وحتى الوجودية.

ومن الطبيعي أن كل تعارف، يعني معرفة الآخر، معرفة خارجية ومعرفة داخلية فهناك عادات وتقاليد وسلوكيات، ومنها ما هو صحيح جيد، ومنها ما هو خاطئ قبيح، والتعارف الحقيقي يسعى إلى استبدال ما هو خاطئ وقبيح بما هو صحيح جيد ونعتقد جازمين أن القرآن العظيم كفيل بأن يُسعد البشرية جميعها بكل العادات الحميدة والتقاليد الإيجابية، والسلوكيات المستقيمة.

ومهمتنا ـ لأننا نحب التعارف ـ أن نبيّن لكافة الأمم ما حث القرآن الكريم عليه من عادات وسلوكيات جيدة دون تعصب أو فرض أو إكراه، ونعتقد أن العقل البشري الذي وصل الآن ذروة التحليل والموازنة والموضوعية، سيرى أن في الإسلام طريقاً لسيادة البشرية، وتخلصها من مخلفات العقائد المنحرفة والفلسفات المادية المفرطة.

إن أخطر ما يواجه البشرية اليوم أمران لا بد من التنبيه لمخاطرهما، الأول تلك الفئات الضالة التي لا تريد أن تحيا البشرية حياة التفاهم والحوار النظيف، والثاني التعصب الأعمى الذي تتصف به كثيرٌ من الأمم والشعوب. وهذا التعصب زين لها

أنها الأفضل والأرقى من بين الأمم، وترى أنه من الشر الحوار مع الآخرين لأنهم أقل شأناً وأقل عقلاً وأدنى خلقاً وأكثر تخلفاً وانحطاطاً.

من أجل أن يكون أي تعارف ناجحاً ومؤثراً، فعلى المجتمعات أن تنشر المحبة والسلام وسعادة البشرية، وأن تخلص الأرض من هاتين الآفتين اللتين تشكلان أكبر الأخطار على شعوب الأرض قاطبة الصهيونية بكل عنصريتها وانحرافها وجرائمها واحتلالها لأرض العرب والمسلمين وتهديدها للسلم العالمي، والتعصب القومي الأعمى أو التعصب العرقي التي تتبناه بعض الشعوب أو بعض أصحاب العقائد والمذاهب المتعصبة.

لقد وضع الإسلام للعالم أسساً واضحة لكيفية التعامل بين البشر، فكانت دعوته بحق دعوة إنسانية شمولية، لا تستثني قوماً، ولا تستبعد شعباً أو أمة، وقد بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وليس نقمة أو حقداً أو قطيعة، وهذه الرحمة تستند على الحرص الحقيقي لبني البشر، فكلكم لآدم وآدم من تراب، فلمَ لا يكون التعارف الإنساني، استجابة حقيقية لنداء الإسلام النابع من جوهر عقيدة إلهية ارتضاها رب العالمين للبشرية كلها.

ولا ريب أن التعارف المتوازن المتوازي القائم على الاحترام المتبادل سيؤدي إلى كثير من النتائج والآثار، فسلوك الفرد أي فرد، سيتغير باتجاه أخيه الإنسان وسلوك المجتمع هو سلوك جمعي للأفراد. وبهذا فإن أي مجتمع ينفتح على الآخرين لا بد أن يضبط سلوكياته باتجاه الإيجاب، وليس باتجاه السلب وهكذا ينطبق هذا الحال على كل المجتمعات الإنسانية.

قد لا تبرز النتائج والآثار بسرعة، لكن التعارف كمفهوم وآلية، يحفر مجراه في العقول والنفوس والسلوك، ومهما طال الوقت فإن الآثار ستظهر، وسيدرك أبناء البشرية أن هذا التعارف أمرٌ أراده الله سبحانه وتعالى، وكلّف به الأنبياء جميعاً،

وخاتمهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم، وكذلك أمته التي منّ الله عليها بالقرآن الخالد إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وبناء على رؤيتنا تجاه التعارف الإنساني وآفاقه ونتائجه فقد قسمنا هذا الكتاب إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

المقدمة:

وقد قدمنا فيها رؤيتنا العربية الإسلامية حول مفهوم التعارف وآلياته وغاياته وأثاره.

الفصل الأول: ويتضمن

التعارف مبدأ قرآني راسخ، ومنهج التعارف الإنساني في السيرة النبوية، ومسار التعارف الإنساني في تاريخ المسلمين.

الفصل الثاني: ويتضمن

كيف نفهم الحوار اليوم، الحوار الإنساني المتكافئ، لا إلغاء للهوية العربية الإسلامية، نحو قواسم مشتركة بين الشعوب.

الفصل الثالث: ويتضمن

التعارف وكسر الحاجز النفسي بين الشعوب، التعارف الإنساني وإعادة النظر إلى التاريخ، التعارف الإنساني وإعادة النظر في المفاهيم.

الفصل الرابع: ويتضمن

آليات التعارف المعاصرة: المؤتمرات ـ الندوات ـ التبادل الإعلامي (الثقافي ـ الفكري) التعرف على الأفكار والفلسفات ـ التعرف على العقائد والمذاهب الدينية التعرف على عادات وتقاليد الشعوب ـ نشر المفاهيم الصحيحة وإزالة المفاهيم الخاطئة ـ التعارف على مستوى الأفراد والمجتمعات والشعوب والأمم ـ نشر المفاهيم الإنسانية بين الشعوب.

الفصل الخامس: ويتضمن

آثار ونتائج : أثـر التعـارف علـى السلوك الإنسـاني ـ أثـر التعـارف فـي تخفيـف التوتر والعداء بين الشعوب ـ أثر التعـارف الإنسـاني فـي موقـف موحـد تجاه العنصريـة والصهيونية واحتلال فلسطين.

خاتمة:

دعوة للتعارف الإنساني لإزالة جميع العقبات الحائلة دون التعارف الإنساني.

الدكتور حسن الباش

2004-08-16 م

الفصل الأول:

التـعـــارف

مبدأ إسلامي راسخ

أولاً: مفهوم التعارف في القرآن الكريم ومنهجه

نزل القرآن الكريم على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس كافة. وبعث الله سبحانه نبيه الكريم رحمة للعالمين، فتكاملت غاية تنزيل القرآن وغاية إرسال النبي صلى الله عليه وسلم.

ولما كانت هذه الغاية الربانية موجهة للبشر جميعاً، كان لا بد أن نعود إلى منهج القرآن الكريم في برهانه على وحدة الجنس البشري، من حيث الأصل والمنشأ ومن حيث التركيب الفيزيولوجي والنفسي للإنسان.

وقد حفل القرآن الكرم بالعشرات من الآيات التي توضح وحدة الخلق البشري وطبيعتها والغاية من هذا الخلق الواحد، وضّحت الآيات أن البشر خلقهم الله جميعاً، يعودون إلى أصل واحد، وجنس واحد أساسه الذكر والأنثى البشريين العاقلين.

ميز الله سبحانه خلق الإنسان عن خلق الملائكة والجن، فلا يكون الإنسان ملاكاً أو شيطاناً، ولا يكون الملاك أو الجن إنساناً.

وطالما أن بني البشر يعودون بأصولهم إلى مادة خلق واحدة، فلا أفضلية لإنسان على إنسان، ومن يدعي أن أصول خلقه متميزة عن غيره فهو إنما يخالف القاعدة ونواميس خلق الله.

لم تخلق نفس بشرية من شيء مغاير لما خلقت منه بقية النفوس. ولم يُخلق جسد بشر من مادة مختلفة، ولا يختلف جسد أحد عن بقية الأجساد في كلية الخلق، كل مخلوق له يدان ورجلان ورأس وقلب ورئتان.

وليس اختلاف ألوان البشر وقسمات وجوههم وأطوالهم مقياساً للتمايز بينهم. بل إن اختلاف ألوان البشر واختلاف ألسنتهم معجزة من الله ونعمة وليست هيَ دافعاً ليظن أحد أنه أفضل من غيره.

وهذا التساوي البديهي يدفع باتجاه التعارف الإنساني الذي ينبني على أساس أن البشر مخلوقات إنسانية متساوية في طبيعة الخلق العامة، ولا يبقى لهم سوى معرفة بعضهم من حيث معتقداتهم وأفكارهم وأهواؤهم ونفوسهم وعاداتهم وتقاليدهم، وما يجب عليهم فعله حتى يبعدوا التنافر عنهم هو معرفة بعضهم معرفة إنسانية واضحة.

يقول تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النساء: 1)

ويقول تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾ (يونس: 19)

ويقول تعالى:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (هود 118).

ويقول تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ (الحجرات: 13).

فهذه الآيات تؤكد مرة بعد أخرى أن الناس جميعاً متساوون في مبدأ الخلق، وأنهم كانوا أمة واحدة فتفرقوا، وتكاثروا وانتشرت لغاتهم وتباينت، ولكن الأساس في وجود الناس هو خلقهم من ذكر وأنثى فلا تمايز بينهم ولا أفضلية لأحد على أحد.

وعندما نتوقف قليلاً عند قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود 118-119)

لأدركنا أن الله سبحانه، قادر على أن يجعل الناس جميعاً أمة واحدة لكنه سبحانه أراد لهذه البشرية أن تكون أمماً شتى حتى يظهر الصالح من الطالح، وحتى يكون التفاعل الحيوي مادة لتقدم العقل البشري، فلنتصور أن الناس جميعاً مؤمنون بالتساوي عاقلون بالتساوي، ولهم لغة واحدة، هل يصح أن يكون ميزان الامتحان موجوداً، كيف تصلح الدنيا! إذا كانت كلها خيراً كاملاً؟ أو كانت كلها شراً كاملاً؟ كيف يكون الجزاء والعقاب، وما هي الغاية إذاً من وجود الإنسان في الأرض، وما معنى أن يكون هناك يوم آخر يُحاسب فيه الناس كلٌ حسب عمله؟

إذاً فاختلاف الناس أمر طبيعي حتى يتحقق ميزان العدل ويُمحص الخبيث من الطيب، والخيّر من الشرير.

ونعتقد أن رحمة الله الواسعة فتحت للبشرية باب التعارف، حتى يكون هناك هداة ودعاة يدعون إلى الخير ويهدون الناس لعبادة الله الواحد الأحد، ويأخذون بأيدي الآخرين إلى الطمأنينة والسلوك المستقيم. وغاية التعارف لا تتوقف عند معرفة الفرد للآخر وحسب، إنما تتبعها دعوة الضال الضائع إلى الصواب، ودعوة المنحرف إلى الاستقامة ودعوة الجاهل للعلم والتدبر والتبصر.

يقول تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل 125).

فهي تدلنا على أسلوب من أساليب التعارف والتواصل مع البشر، فمن دون حكمة عاقلة وموعظة حسنة سيكون التنافر والخصومة والاشمئزاز والهروب وعدم الاستماع للآخر.

إن المنهج القرآني يدلنا على أساس التعارف وغاياته وذلك في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: 13).

فالخطاب الإلهي موجه للناس كافة، ولم يخص المؤمنين أو الكافرين ولو حللنا كلمات الآية في سياقها لعرفنا أن الله سبحانه عندما يخاطب الناس إنما يخاطبهم لأنهم جميعاً خلقه، وجميعهم يدين بمسألة الخلق للإله الواحد الأحد، فقبل أن يكونوا مؤمنين وجّه الخطاب لهم باعتباراتهم الإنسانية العاقلة، وحتى في هذا الخطاب فإن الله سبحانه ساوى بين كافة الناس كافرهم ومؤمنهم أسودهم وأبيضهم ومهما تعددت لغاتهم وتباينت، ومن الواضح في هذه الآية أن العلاقة، هي بين طرفين، الله سبحانه الخالق المهيمن، والناس المخلوقين المدينين جميعهم إلى إله واحد.

والغاية من الخلق في هذا الإطار التعارف بين الناس وليس للتفاخر بالأصل واللون والعرق والقبائل والأنساب والتقوى تكمل بها النفوس وتتفاضل بها الأشخاص وترتفع بها الدرجات فمن أراد شرفاً وعزاً وكرامة فليلتمس ذلك منها[1].

إن الآية الكريمة تدفع المسلم وغير المسلم أن يعرف أن الشعوب والأمم جميعها لها معتقدات وعقائد متغايرة، لكن هذا التباين وهذا الاختلاف لا ينفيان مفهوم التعارف أو يحد منه فكل البشرية مخلوقة في أصلها من ذكر وأنثى، وغاية خلق الله لهذه البشرية وانتشارها أن تتعارف فيما بينها فلا أفضلية لأحد على آخر والأفضل في المقياس الإلهي هو التقوى، وهذه التقوى تحمل الكثير من الدلالات فهي الإيمان، وهي المساواة والعدالة، وعدم الظلم أو التكبر فهي ضد الأنا الفوقية، وضد العنصرية وضد الإبادة والجرائم والحروب العدائية، وفي إطار آخر يؤكد القرآن الكريم أصل البشرية وما كانت عليه وذلك بقوله تعالى:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ (البقرة: 213).

---

(1) محمد الدرة. القرآن الكريم إعرابه وبيانه مجلد 13ص 612-613، دار الحكمة دمشق 1990م.

فهذا تنبيه إلى أن الناس كانوا أمة واحدة في عبادتهم وتوجههم وحتى في عقيدتهم لكنهم اختلفوا فيما بينهم وهذا ما يؤكد خروج بعضهم عن عقيدة التوحيد فأرسل الله الرسل والأنبياء ليحكموا بين الناس بالحق فيما اختلفوا فيه.

وفي الآية معان كثيرة يتفهمها العقل بدقة حين يدرس ظلالها وأبعادها.

لقد كان الناس أمة واحدة ومعنى أن يكونوا أمة واحدة يعني أنهم يعرفون بعضهم بعضاً وعندما دب الخلاف بينهم وقع التقاطع ووقعت القطيعة فبعث الله الأنبياء والرسل كي يعيدوهم إلى المنبع الأول لوحدتهم وهو التعارف والتواصل.

فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فبماذا يبشر الأنبياء ولماذا ينذرون؟ ألا يبشرون بخير الدنيا وخير الآخرة على العموم؟ وإذا كان الناس أمة واحدة أليس معنى ذلك أن الأنبياء بعثوا ليُعيدوهم إلى الخير والوفاق؟ وينذروهم إذا ظلوا على خلافهم وشذ بعضهم عن حقيقة الدين الموحّد وراح ينحرف إلى عبادات أخرى ما كانت البشرية تعرفها قبل ذلك.

ويؤكد القرآن الكريم ذلك مرة أخرى بقوله:

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ (يونس: 19).

ولو تساءل بعضنا لمَ لمْ يجعل الله سبحانه هذه الأمم والشعوب أمة واحدة؟ فارتاحوا من عناء هذا الاختلاف والتناقض والتناحر؟

فالله سبحانه قادر أن يجعل هذه الأمم والشعوب أمة واحدة لها عقيدة واحدة لكن الله سبحانه أراد لهذه الدنيا أن تكون دار تدافع ودار امتحان وقد ترك للإنسان حرية الاختيار بين منهج الرحمة والتعارف ومنهج القطيعة والتنافر الشيطاني.

ويقول الله تعالى:

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ ﴾ (هود 118-119).

ويقول تعالى:

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: 33-35).

فلولا أن يصير الناس جميعاً كفاراً فيجتمعون على الكفر ويرغبون فيه إذا رأوا الكفار في سعة من الخير أن يعتقد كثير من الجهلة إن إعطاء الله المال دليل على محبته لمن أعطاه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال فلذلك كان التفاوت بين الناس فكان أن وُجد مؤمنهم وكذلك كافرهم.

إن مقياس الله سبحانه أن لا يكون الناس أمة واحدة في العقيدة والتفكير والإيمان حتى يكون هناك امتحان وتكون آخرة.

وهذا الاختلاف حتى بالعقائد بين الشعوب والأمم حافز للإنسان المؤمن كي ينطلق ويتعرف على الآخرين ويدعو إلى طريق الله وكذلك فعل الأنبياء بعد أن كلفهم الله سبحانه بالنبوة وهداية الخلق إلى طريق التوحيد والهداية.

ثانياً: التذكير بأساس الخلق وعبادة الله سبحانه

طالما أن الله سبحانه خلق هذه البشرية، فمن الطبيعي أن تظل تحت رعايته سبحانه خلقها حرة لتميز، ولكن لم يتركها دون دعوة إلى العبادة والتقوى والصلاح واتباع ما جاء به الأنبياء والرسل.

وفي عدد من الآيات ربط القرآن الكريم بين التذكير بأساس الخلق ومبدئه وبين عبادة الله سبحانه، ولعل هذا التذكير من أبلغ الأمور التي توضع أمام العقل كي يحاكم ويحاسب ويميز بين طريق الإيمان وطريق الضلال.

يقول تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة 21 ـ 22).

فهو يذكر الناس في أي عصر بأنه خالقهم وخالق من قبلهم، ويذكرهم بأنه سخر لهم الأرض والسماء والمطر والرزق، وهذا التذكير لم ينحصر في فئة دون أخرى بل هو تذكير للناس جميعاً لأنهم في أصولهم مخلوقون من قبله فلمَ يكون هذا مؤمناً وهذا كافراً؟ لماذا لا يكون الجميع في دائرة التقوى والإيمان بالله؟ ولكن ما علاقة هذا كله بالتعارف الإنساني؟

يعلمنا القرآن الكريم درساً بالغاً في معاملة الناس فالله خلق الكون والإنسان ودبر حياة المخلوقات جميعاً والناس يضلون وينحرفون، ولو حاسب الله الناس على أخطائهم لما بقي إنسان بلا حساب لأنه لا يوجد إنسان بلا خطيئة ولو عجل بحسابهم لما بقي مخلوق حياً.

يقول تعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ (فاطر : 45) .

فإذا كان الله جل جلاله يعرّف بذاته وقدرته ورحمته بهذه الطريقة ، فالأولى بالإنسان أن يسير على هدي خالقه فيعامل الناس معاملة الإنسانية التي من شأنها خلق التواصل والتعارف والترابط بين الناس .

وهذه الأسس أسبابٌ لفتح باب التعارف بين أبناء البشرية ، والدخول في هذا الباب يتطلب أن يكون الإنسان المسلم صاحب رسالة ، فيها قواعد إنسانية راسخة حتى يتمكن من طرح أفكاره ومبادئه على مسامع الآخرين وبذلك يتم فتح طريق التعارف بين البشر .

وقد فصل القرآن الكريم في تلك المبادئ والأفكار تفصيلاً واسعاً حتى إنه لم يترك أمراً صغيراً أو كبيراً إلا وطرحه كأسلوب إنساني واضح ، وفي الواقع طرح القرآن الكريم عشرات السلوكيات وحض عليها . وإن لم تكن هذه السلوكيات موجودة في واقع التعامل بين المسلمين وغيرهم فإن عملية التعارف لن توجد ولن تحصل كما يهدف لها الناس .

وبالدرجة الأولى بيّن القرآن الكريم طريقة النظرة إلى الآخر . وهذا الآخر إنسان له شخصيته وكرامته وله سماته الإنسانية ، كما حددتها آيات سابقة جاءت في سياق ما تقدم .

ولعل أول مفتاح للتعارف بين المسلم وغيره حددته الآية الكريمة في قوله تعالى :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة : 8)

فالمنهج القرآني واضح في التعامل مع الآخر المسالم مهما كان معتقده وتفكيره. فالمعول هنا يقع على البر، وهو أرقى أنواع التعامل وأوسع الأبواب للتعارف الإنساني. طالما أن هذا الآخر لم يقاتل المسلمين في دينهم ولم يحاول إخراجهم من ديارهم ولم يحاول استعمار بلادهم أو الاعتداء على حقوقهم.

والإحسان إلى الآخر باب واسع لا تحده حدود. ولو أتيح للمسلمين تطبيق هذا المبدأ في الأرض كلها لاختصرنا الوقت كثيراً كي نقترب من تعارف الناس وتواصلهم.

فالإحسان والصدقات خص الله بها أصنافاً من البشر دون تحديد عقيدتهم أو درجة إيمانهم، فقال تعالى:

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ (البقرة: 83)

وقال تعالى:

﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ (البقرة: 177)

ويقول تعالى:

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (النساء: 36)

وقد جاءت التصنيفات مطلقة وليست مقيدة. بمعنى أن الإحسان يعم هذه الأصناف من الناس دون النظر إلى مستويات إيمانهم أو أجناسهم.

فهل يُمنع الإحسان لليتامى من غير المسلمين؟ وكذلك الجيران أو أبناء السبيل من أصحاب الديانات الأخرى؟

وهناك من أبواب التعارف والتواصل ما طرحه القرآن الكريم ولم يتنبه له الناس أو أنهم حصروه وضيقوا أبواب خيره.

فالقرآن كرم الإنسان وطلب منه أن يحترم نفسه كإنسان. فعليه احترام أخيه الإنسان وعدم تحقيره أو تصغير شأنه أو لمزه أو همزه أو الحط من قدره.

يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ (الحجرات: 11-12-13).

فإذا أردنا التعارف الإنساني فإن أول ما وصانا به الله سبحانه هو عدم سخريتنا من الآخر وعدم جرح كرامة الفرد في أمر يكرهه. ومن ثم فقد عدد القرآن الكريم أموراً أخرى تدخل في باب السلوك الجيد الذي من شأنه فتح أفق التعارف بين الناس.

ولنلاحظ أن الآيات الثلاث ارتبطت بتوجيهات تربوية نفسية اجتماعية. ولا يمكن فصل الآية الثالثة الداعية إلى التعارف بين الأمم والشعوب عن مضمون الآيتين السابقتين لها.

صحيح أن الخطاب في الآيتين الأولى والثانية كان موجهاً للذين آمنوا والخطاب في الثالثة كان لعامة الناس إلا أن المقصود بذلك أن الذين آمنوا هم أولى الناس بأن يسلكوا أفضل السلوكيات ويكونوا قدوة لغيرهم من البشر حتى يتم التعارف والتواصل بينهم، ومن أسس التعارف أيضاً أخلاقيات أخرى هي كالأبواب إلى الخير الذي يعم الإنسانية من بينها الوفاء بالعهود والعقود بين كل الناس.

يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ (المائدة: 1)

ويقول تعالى :

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام : 152)

ويقول تعالى :

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ (النحل : 91)

ويقول تعالى :

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء : 34)

فهل يقتصر الوفاء بالعهد على أبناء الأمة المسلمة أو المؤمنة؟ أم أن الله سبحانه طالب كل فرد مؤمن مسلم أن يوفي بعهده لكل الناس مهما كانت عقيدتهم؟ إن الوفاء بالعهد مسؤولية كبرى، ووقعها في نفوس الآخرين كبير جداً. إذ أنها حين تنفذ بصدق تنعكس على الآخرين في تعاملهم مع أمة الإسلام. وتقربهم من التعارف والتواصل مع أبناء هذه الأمة. ولا ثقة بمن لا عهد له. وهذا ما يعطي الوفاء بالعهود صفة راسخة مهمة لكيفية التعامل النفسي والمسلكي بين الناس جميعاً.

ويربط بالوفاء بالعهد تأدية الأمانات لأصحابها، وهي من الخُلق الإسلامي الأساسي الذي يخلق الثقة لدى الآخرين، بل كثيراً ما فتح الباب لدخول الإسلام إلى قلوب الناس.

يقول تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ (المؤمنون : 8)

فلا يجوز أن تؤدى الأمانة للمسلم دون غيره. بل إن تأدية الأمانة لغير المسلمين فرض إلهي لا يجوز المساس به.

ومن طبيعة السلوك الإسلامي أن يأمر المسلم بالعفو والصفح وكظم الغيظ.

يقول تعالى :

﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ ﴾ (البقرة : 109)

ويقول تعالى :

﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (البقرة : 237)

ويقول تعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ (الحجر : 85)

ويقول تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (النحل : 126)

وهناك العديد من الآيات الكريمة التي تحض على الصبر والعفو والإصلاح وكظم الغيظ .

يقول تعالى :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (الجاثية : 14) .

وفي عمل الإحسان بإطلاق صرحت آيات الكتاب المبين بكثير من الطرق والأساليب المؤدية إلى حسن العلاقة مع الآخرين وفتح باب التعارف معهم .

يقول تعالى :

﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة : 195)

ويقول تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (النحل : 90)

وهذا الإحسان هو بالمطلق غير المقيد ، فلا تحده أو يحده زمان ومكان .

ونلاحظ قوله تعالى:

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ (الإسراء: 28)

إن العودة إلى منهج القرآن الكريم الذي تبيّن لنا من خلال الآيات السابقة تعرفنا دون أدنى شك بأخلاقيات متكاملة، تشكل سلوكاً متكاملاً للتعامل بين الفرد والفرد والمجموع دون الالتفات إلى عقائد الناس ومذاهبهم، ودون الالتفات لمن هم ليس على سبيل المسلمين وطريقهم.

ونعتقد أن سر نجاح الدعوة الإسلامية وانتشار الإسلام في أصقاع الدنيا يكمن في هذا السلوك الإنساني الرفيع.

وإذا كنا ندعو اليوم للتعارف والتحاور فإن سبيلنا هو طرح هذه الأخلاقيات قولاً وعملاً، حتى يكون تحركنا داخل دائرة الدعوة وليس خارجها. ويكون عملنا كوننا مسلمين خالصاً لوجه الله ولدرء المخاطر عن الإنسانية ولإيجاد حلول جذرية لعشرات المشاكل البشرية التي تعاني منها جميع المجتمعات.

لقد أوضح القرآن الكريم كيفية التعامل مع أصحاب العقائد الأخرى حتى لا يبقى مفهوم التعارف مبهماً، أو حتى لا يبقى في إطار التعامل العام. لقد طرح القرآن الكريم مفهوم الجدال وشرّطه بالتي هي أحسن. فلا جدال من أجل جدال، إنما هو جدال حواري يهدف للوصول إلى غاية التعارف بين البشر.

ثالثاً: كيف طرح القرآن مفهوم الحوار مع أهل الكتاب؟ كيف نربط بين أسلوب الحوار وبين غاية التعارف والتواصل؟

لعل أكثر الناس قرباً من المسلمين هم أهل الكتاب من يهود ونصارى، كون كل عقيدة منهما تستند حسب قناعتها على كتاب سماوي نزله الله سبحانه على موسى وأنبياء بني إسرائيل عليهم السلام وعيسى عليه السلام.

وقد يتسع ذلك ليشمل كل من اعتقد ديناً سماوياً وله كتاب منزل وهذا يوسع الدائرة ليشمل غير اليهود والنصارى.

أما لماذا الحوار والتعارف بين المسلمين وأهل الكتاب؟ فلأن الإسلام نشأ في البيئة التي نشأت فيها اليهودية والنصرانية وانتشرتا في نفس المنطقة. أي منطقة الأرض العربية. ومن الأسباب أيضاً أن الإسلام جاء خاتماً للرسالات معترفاً بما أنزل على الأنبياء. بل إنه جاء مكملاً لكل من العقيدتين.

ولعل المستقبل الذي حكم الأمة المسلمة عبر التاريخ كان مستقبل العلاقة الأشد تواجهاً وتعارفاً مع أصحاب العقيدتين اليهودية والنصرانية.

وقد امتاز هذا التماس المباشر بالجدال والحوار حول مسائل العقيدة والمسائل السلوكية وظل الحوار قائماً طالما كل طرف يحترم العقود والعهود المبرمة بين المسلمين وأصحاب الكتاب.

أول أبواب التعارف الاعتراف بالآخر:

لو نظرنا في كتاب التوراة المكتوبة لوجدنا التعاليم الدينية ترفض الاعتراف بالآخر وكذلك جاء كتاب التلمود ليرفض الاعتراف بغير اليهود على أنهم من البشر[1].

---

(1) أنظر كتاب التوراة، سفر التكوين وغيره وكذلك الكنز المرصود في فضح التلمود، لتدرك كيف جعلت نصوص الكتابين من بقية البشر من غير اليهود حيوانات وليسوا بشراً.

غير أن القرآن الكريم أكد على مسألة هامة جداً وهي أن الإسلام وبالنص القرآني الصريح يعترف بالتوراة والإنجيل وأصحابهما.

يقول تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: 48)

وقد ورد ذكر التوراة في القرآن الكريم في تسعة عشر موضعاً وورد كتاب موسى عليه السلام اثنتي عشر مرة. وكذلك الإنجيل فقد ورد أكثر من مرة. وجميع الآيات القرآنية تؤكد اعتراف الإسلام بالكتابين كونهما من الله سبحانه.

ومن هذا المبدأ الراسخ طرح القرآن الكريم مفهوم التحاور والتجادل مع أهل الكتاب، وإذا سرنا مع آياته الخاصة بهذا المنهج التعارفي نقف عند بعض الآيات الواضحة في ألفاظها ومعانيها، فهي لا تحتمل التأويل.

يقول تعالى:

﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: 46)

فهذه الآية توضح أركان الجدال مع أهل الكتاب حتى يحصل التعارف والتواصل ففي البداية نرى أمراً من الله سبحانه لا تجادلوا إلا بالتي هي أحسن. والمبدأ الأساسي الراسخ قبل أي حوار أو أثنائه هو الإيمان بما أنزله الله على أهل الكتاب من توراة وإنجيل. ثم تبيان أن الله واحد لا شريك له وهو إله الجميع وخالق الجميع.

(إن هناك دعوة للحوار مع أهل الكتاب. حوار يركز على الانطلاق من مواطن اللقاء في الفكر والرسالة، وهنا لابد من التصريح بأن القيمة الكبرى للإسلام هي في إيمانه الصادق بكل الرسالات السماوية، وتبنّيه لجميع الأنبياء والمرسلين وخضوعه في

العبودية لله وحده. وهذه جميعها تمثل قواسم مشتركة مع أهل الكتاب. وعلى هذا الأساس كانت الدعوة إلى بدء الحوار من قاعدة مشتركة في قضية الإيمان التي يمكن أن توحي بإمكانية اللقاء في القضايا الكبرى)[1].

ويقول تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: 125)

فهنا أيضاً دعوة إلى الجدل بالتي أحسن، وهذا يتطلب اتباع أفضل الأساليب وأحسنها في إقناع الخصم بالفكرة التي يدور حولها الحوار، بحيث يبقى الداعية إلى الله في ملاحقة جادة واعية لمختلف الأساليب المطروحة ليختار منها الأفضل سواء في الكلمات التي يستخدمها والمعاني التي يعبر عنها.

وفي أكثر من ثلاثين موضعاً خاطب القرآن الكريم اليهود والنصارى بـ(يا أهل الكتاب) وهي في حد ذاتها لها وقع خاص بالنفس، وفيها تمييز بين أهل الكتاب وغيرهم من الجاهليين والمشركين والكافرين. فأهل الكتاب تعني المعرفة بجوهر العقيدة وتعني المعرفة بالقصص التاريخية الدينية. والمعرفة بالمستقبل الأخروي للإنسان. وحتى في استخدامه أداة النداء (يا) فإنها توحي بالتحبب وليس بالعنف والسؤال الفج أو النداء المبتور السريع. وكلمة (أهل) تعني الأهلية، فهم أهل الكتاب الذين تتوفر فيهم النفوس والعقول التي تتمتع بالعقلانية والفهم وتقبل الحوار والنقاش. إن كلمة (أهل الكتاب) لقب يدل على الاحترام الذي خوطب به المسيحيون واليهود في القرآن الكريم[2].

---

(1) محمد حسين فضل الله في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي، ص 18، دار الملاك، بيروت 1994

(2) بسام العجك، الحوار الإسلامي المسيحي، ص 88، دار قتيبة، دمشق، 1998

يقول تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (آل عمران : 64)

وقد ذكر الله سبحانه الذين آمنوا من أهل الكتاب بأحسن الصفات والسمات ومدح إيمانهم لأنهم آمنوا بالله الواحد الأحد ولم يشركوا به .

يقول تعالى :

﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (آل عمران : 113-114)

ويقول تعالى :

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (المائدة : 83)

ويقول تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (الإسراء : 107-109)

ويقول تعالى :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ ﴾ (آل عمران : 75)

فهذه الآيات وغيرها من الآيات القرآنية أعطت لأهل الكتاب الصفات التي يستحقونها بل وصفتهم وصفاً لا يقل في مكانته عن وصف المؤمنين الصادقين الصالحين .

ومن هذا الباب نستطيع أن نؤكد أن باب التعارف مفتوح على مصراعيه مع هؤلاء لأنهم يحملون سمات وصفات تشكل قاسماً مشتركاً بيننا وبينهم .

وأناس يتمتعون بـهذه السـمات لابـد أن يجـدوا الطـرف الآخـر قريبـاً منـهم فـي سماته وسلوكه وإيمانه. وهذا بحد ذاته كفيل بأن يعجـل دومـاً بالتعـارف والتواصـل. ويجدر بنا أن نتذكر هنا أن غالبية الحوارات التي تجري اليوم والحـوارات التـي يمكـن أن تجري في المستقبل هي بين الإسلام والمسيحية، كون المسيحية عقيدة الغالبية الأوروبيـة وكون التصادم الذي جرى بين الشرق والغرب حمل في أحد جوانبه البعد الديني. إن كان من الطرف الشرقي العربي أو من الطرف الغربي الأوروبي.

وفي هذا الإطار فمن المفـترض أن تتضمـن آليـة الحـوار والتعـارف طـرح النظـرة القرآنية الإسلامية أمام أعين الطرف الآخر حتى يدرك مسبقاً موقف القرآن الكريم من أهل الكتـاب الذيـن هـم الطـرف الأكـثر عرضـة للحـوار والتفـاهم مـع الشـرق العربـي الإسلامي.

منهج التعارف الإنساني
في السيرة النبوية

ترتبط سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً. فالقرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغ ما فيه إلى الناس. والقرآن الكريم تناول شخصية النبي صلى الله عليه وسلم وبين خصائصها المصطفاة على مستوى النفس والسلوك والعقل وما إلى ذلك.

فإذا كان القرآن الكريم قد حدد في آياته أسس التعارف الإنساني وأسبابه ونتائجه فإن النبي صلى الله عليه وسلم ترجم هذه الأسس في الحياة العملية للنبوة. وليس غريباً أن يكون أكثر الناس فهماً لأهمية التعارف والحوار مع الآخرين وأكثر الناس حرصاً على العلاقات الإنسانية الجيدة.

وطبيعي أن تكون سمات النبوة ما يؤهلها لتكون محل ثقة من الجميع بل ومركز التعارف الإنساني العالمي.

فهو صاحب الرسالة الإنسانية العالمية. وهو الصادق الأمين. المتواضع وأقوى الناس حجة، البليغ الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، وهو أشرف الخلق، وأجدر الناس بالإيمان به، وهو قمة الأخلاق، وقمة العقل والمنطق والعاطفة، ولو عددنا صفاته لعجز القلم عن حصرها.

وقد أتى القرآن الكريم على ذكر صفاته في عشرات المواقع القرآنية.

قال تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4)

ويقول تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 107)

ويقول تعالى:

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ (التوبة: 128)

ويقول تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ (الأعراف: 157)

فهذا النبي بهذه الصفات التي منحه إياها الله سبحانه وتعالى تهيأ تهيئة إلهية ليكون مثلاً لمن يريد أن يحاور الناس ويبني بينه وبينهم الجسور الإنسانية.

وإذا تجاوزنا الفترة المكية من حياة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأردنا أن نعرف كيف بدأ مسيرته في المدينة لابد أن نتوقف عند الوثيقة الدستورية الأولى في الإسلام، ثم لابد أن نتوقف عند العهد الذي منحه لأهل نجران، ثم لابد من وقفة عند رسائله إلى الملوك والأمراء الذين كانوا يحكمون البلاد المجاورة.

وفي المقام الثاني لابد أن نشير إلى لقاءاته مع الشخصيات الدينية التي كانت تدين بالنصرانية أو اليهودية، لندرك مدى أهمية منهج التعارف الإنساني في حياته.

جاء في معاهدة النبي صلى الله عليه وسلم التي بين فيها طبيعة الأمة المسلمة المؤلفة من المهاجرين والأنصار. ثم بين فيها ما لهذه الأمة من حقوق وواجبات، ثم تحدثت عن اليهود وما لهم وما عليهم.

وقد جاء فيها:

(وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يهود بني عوف أمة من المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم

وأثم فإنه لا يوتغ (يفتك) إلا نفسه وأهل بيته . وأن ليهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وجفنة وبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وأن بطانة يهود كأنفسهم) .

وجاء فيها :

(وأن على اليهود نفقتهم. وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم . . . إلخ) .

فإذا نظرنا إلى كيفية التعامل مع اليهود في هذه الصحيفة أدركنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريد أن يأمن أصحاب العقائد السماوية على عقائدهم ومعتقداتهم. وقد منحتهم الوثيقة جميع الحقوق الإنسانية التي منحت لأمة الإسلام .

وقد كانت هذه الوثيقة فاتحة الطريق أمام مرحلة جديدة من مراحل التعارف العملي بين أمة الإسلام وغيرهم من أصحاب العقائد كاليهود والنصارى .

وجاء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران :

(ولا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته وليس عليه دنيّه) .

وقد ترجم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العهود وغيرها من المواثيق في سلوكه العملي وسلوك المسلمين .

عندما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة أذن لبعض صحابته من المستضعفين أن يهاجروا إلى الحبشة . وقد تمت هجرتان إلى الحبشة وكان يحكمها النجاشي . فلماذا اتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في انتقاء الحبشة دون سواها . أليس ذلك يدل على أنه كان يدرك أين تكون مواطن الحوار والتعارف بين الشعوب والعقائد؟

لقد مكث الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة حتى السنة السابعة للهجرة فرجعوا إلى المدينة بعد فتح خيبر . وقد كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين

النجاشي في ذاك الوقت مراسلات وهدايا . وقد ورد في السيرة النبوية والطبقات الكبرى وفي غيرهما من الكتب أحاديث مطولة عن علاقة النبي صلى الله عليه وسلم مع النجاشي .

ولكي تكتمل صورة منهج التعارف لدى النبي صلى الله عليه وسلم فقد بعث برسائل عدة إلى ملوك وزعماء عصره من أهل الكتاب وخاصة المسيحيين . ففي السنة السادسة للهجرة بعث برسالة إلى النجاشي وبرسالة إلى هرقل قيصر الروم وإلى المقوقس ملك القبط ، وإلى ابني الجلندي حاكمي عمان وكانا من النصارى . وإلى الحارث الغساني وإلى ملك اليمامة هوذة بن علي الحنفي . وإلى أسقف نجران أبي الحارث . وإلى ملك الغساسنة جبلة بن الأيهم وإلى أسقف الروم في دمشق وإلى ملك القدس يوحنا بن رؤبة ، وإلى أكيدر بن عبد الملك ومزوة بن عمرو الجذافي وكانوا في غالبيتهم من النصارى . ولو دققنا النظر في مضمون الرسائل وجدنا فيها عبراً ودلالات ودروساً في التعارف الإنساني بين أمة الإسلام وغيرها من الأمم .

وتبين هذه الرسائل أنه لا مطمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم بملك ولا باحتلال . لقد كان يدعو إلى الإسلام ليعم السلام . وقد كانت كلماته صلى الله عليه وسلم تعبر عن موقف قرآني راسخ واضح . فهو يبين في رسائله أول ما يبين أنه يؤمن بنبوة المسيح إيماناً مطلقاً فهو أخوه في الرسالة . ومريم قديسة مباركة طاهرة يجلها ويحترمها أيما احترام لأن الله سبحانه اصطفاها من بين نساء العالمين .

وفي رسالته إلى هرقل ملك الروم يُظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم جوهر الإسلام الذي يقدر أصحاب العقائد الأخرى ويدعوهم إلى توحيدها لتعود إلى الإسلام الشامل الإنساني العالمي ، وفي أكثر الرسائل التي بُعثت إلى الملوك النصارى كانت الآية القرآنية القائلة ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا . . . ﴾ السند القرآني المتين للرسالة .

ومن أهم ما في هذه الرسائل أنها لم تحوِ أي تـهديد بحـرب أو بغـزو أو بقتـال. إنما كانت دوماً تذكر بحساب الله سبحانه للناس يوم الآخرة، وتذكر هـؤلاء بـأن هـذا الإسلام يؤكد على نبوة الأنبياء الذين ورد ذكرهم في التوراة والإنجيل والقرآن.

وهـذا هـو منـهج التعـارف الصحيـح، بحيـث يُظـهر المحـاور معارفـه الصادقـة بـالنبوات والرسـالات والتـاريخ. لا أن يدعـو إلـى فكـرة ويجـهل أفكـار الآخريـن وتاريخهم وثقافاتهم وعقائدهم.

وخلال حياة النبي صلى اللـه عليـه وسـلم منـذ أن جـهر بـالدعوة وحتـى خطبـة الوداع، كان منهجه عليه الصلاة والسلام يرسخ مبدأ التعارف كحل لجميع الخلافـات الفردية والجماعية والدولية وطالما أن منهجه هو منـهج القـرآن الكريـم فلابـد أن يحفـر مجراه بعمق وقوة في التاريخ. فها نحن اليوم نشهد الإسلام وقد امتلك مـن الوسـائل العقلية والفكرية ما يؤهله لأن يعم العالم ويقبل عليه الناس أفواجاً.

مسار التعارف الإنساني في تاريخ المسلمين

القرآن الكريم كتاب حوار، والرسول صلى الله عليه وسلم، نبي بعث لحوار الناس جميعاً، وغاية القرآن الكريم التعارف بين الناس ليتجهوا نحو عبادته وعدم الإشراك به، ورسخت هذه القاعدة في نفوس المسلمين فرداً فرداً وجماعات جماعات. فانطلقت الدعوة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها يتعرف أصحابها على الأمم والشعوب ويعرفونهم بالدين القيم. فإن استجابوا أصبح الناس سواسية أمام الله سبحانه وأمام رسالته الخاتمة. وإن لم يستجيبوا وظلوا على عقائدهم مسالمين لا يعتدون تحمى كنائسهم وصوامعهم وبيعهم لا تمس بسوء ولا يضغط عليهم. إذ أن القاعدة التعارفية الأساسية هي قوله تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.

لم يمض وقت طويل حتى فتح المسلمون بلاد الروم والفرس وانطلق المسلمون إلى الأندلس ليقيموا أجمل حضارة في الجانب الغربي للمتوسط. ووصل دعاة الإسلام إلى أندونيسيا والفلبين جنوباً وإلى أواسط آسيا في بلاد ما وراء النهر. وببضع مئات من السنين أصبح العالم الإسلامي شاسعاً واسعاً.

ولا شك أن الدولة الإسلامية بما قامت عليه من أسس قرآنية تركت الناس يختارون عقائدهم ومنهم من كان نصرانياً فظل على نصرانيته ومنهم من ظل على يهوديته وبعضهم ظل على عقيدته الزرادشتية، أو الصابئة وما شابه ذلك.

ومن الطبيعي أن الاحتكاك اليومي لأبناء الدولة المسلمة يخلق جواً من الحوار والتعارف يغني العقائد والثقافات ويحرك الفكر باتجاه أعم وأعمق.

وقد شهدت حركة التعارف بين المسلمين وغيرهم من الشعوب درجة بالغة من الحيوية والنشاط منذ عهد الخلفاء الراشدين ومروراً بالعصر الأموي فالعباسي وعصر السلاطين من دويلات الأيوبيين والمماليك وصولاً إلى العصر العثماني.

وعندما يراجع المسلمون سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدركون أن هناك آليات للتعارف لابد من تطبيقها.

فمنها مثلاً تعلم لغات غير العرب حتى يتعرف المسلم على ثقافتهم وعقائدهم وينشئ حوارات بينه وبينهم.

وقد ذكر أحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام) أنه ورد في صحيح البخاري عن زيد بن ثابت قال: أتى بي رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمة المدينة فقيل: هذا من بني النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة فقرأت عليه فأعجبه ذلك فقال: تعلم كتاب يهود فإني ما آمنهم على كتابي ففعلت. فما مضى لي نصف شهر حتى حذقته فكنت أكتب إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له.

وفي حديث آخر، عن زيد بن ثابت قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا علي أو ينقصوا فتعلم السريانية فتعلمتها في سبعة عشر يوماً[1].

وعندما نصل إلى العصر العباسي وجدنا أن حركة التعارف بين الشعوب بلغت أوجها، ويمكن أن نلخص وجوه هذا التعارف كما يأتي:

- بروز الترجمة من اللغة الفارسية والهندية واليونانية والسريانية إلى العربية ونقل العربية إلى هذه اللغات. وهذه الترجمة هيأت مئات المثقفين والأدباء والفلاسفة كي يطلعوا على ثقافات تلك الأمم ويحاوروا أصحابها في شتى مناحي الحياة العقيدية والفكرية والفلسفية والأدبية.

---

(1) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 42، دار الكتاب العربي، الطبعة العاشرة، 1996.

- بروز الفرق ولاسيما المتكلمون، حيث رأينا من اشترك في الحوار الفكري بين المعتزلة والأشاعرة والمرجئة وغيرهم من كبار الفلاسفة وزعماء الحركات الدينية والمذهبية من عرب وغيرهم.
- بروز التلاقح الثقافي بشكل كبير بين الثقافة العربية وغيرها من الثقافات. وقد بلغت موجة التعارف الإنساني ذروتها في ذلك العصر حتى أن الخلفاء أشرفوا على كثير من المناظرات والمؤتمرات المصغرة إن صح التعبير.

من ذلك مثلاً ما نسب إلى حوار طويل جرى بين الخليفة العباسي المهدي والبطريرك طيماثلوس، وما نُقل عن هذا الحوار في أوساط المسيحيين السريان والمسلمين. وكذلك الحوار الذي جرى بين هارون الرشيد وطبيبه المسيحي الخاص. وكذلك الحوار الذي حضره المأمون بين كلثوم بن عمرو العتابي وابن فروة النصراني. وهناك أيضاً حوارات جرت بين شخصيات علمية مسلمة وبين شخصيات دينية مسيحية ويهودية. كالحوار بين الباقلاني وملك الروم وحوار بين الفخر الرازي وقسيس خوارزم.

وذكرت كتب التاريخ أن بعض الخلفاء جمعوا بعض المفكرين الدينيين من المسلمين والمسيحيين في حوارات جماعية كالتي جرت بين النساطرة واليعاقبة وعلماء من المسلمين في زمن معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان. والحوار بين علي الرضا وزعيم الأساقفة عند بعض الطوائف المسيحية الشرقية.

وقد شهدت الأندلس حركة ترجمة وحوارات واسعة وطوال ثمانية قرون، ظل التعارف حياً في حركة دائمة بين المسلمين والأوروبيين، خاصة الذين وفدوا إلى المدن الأندلسية للتعلم والتثقف والاطلاع على الآداب العربية وكذلك الفلسفات والأفكار.

ولولا التعارف الإنسان لما وجدنا تأثيرات رسالة الغفران للمعري ومعراج ابن عربي في الكوميديا الإلهية لدانتي. ولما وجدنا تأثيرات الشعر العربي والموشحات في شعر التروبادور.

الفصل الثاني:

كيف نفهم التعارف الإنساني اليوم وفي المستقبل

أولاً: كيف نفهم التعارف الإنساني؟

لاشك أننا في هذا الإطار ندخل إلى العصر الحالي طارحين موضوع التعارف الإنساني كعمل مشترك بين الشعوب ونحن أكثر فهماً ووعياً للعالم وما فيه من صراعات وصدامات، وما فيه من طموحات إنسانية وتناقضات وطروحات نظرية تُلقى هنا وهناك. ومحاولات جادة من بعض الأطراف لخلق جو ملائم للحوار المؤدي إلى تعارف إنساني صحيح.

وفي البداية، لابد لنا أن نعرّف كل الأطراف التي تستجيب للتعارف معنا، من نحن وما هي مبادئنا وهويتنا؟ لماذا نسعى للتعارف؟ وما هي رؤيتنا لهذا التعارف؟ ما هو دورنا الإنساني الإسلامي للوصول إلى تعارف متوازن متكافئ؟

أنت تعرفني، وأنا أعرفك.. إذاً ماذا تعرف عني؟ وماذا أعرف عنك؟ ما الذي تجهله فيّ أو عني وما الذي أجهله فيك أو عنك؟

ومن المفترض أن أعرفك وأن تعرفني حتى يعرف المتعارفون من هم.

فنحن أمة عربية إسلامية لنا ديننا الإسلامي، لنا كتاب اسمه القرآن، ولنا نبي اسمه محمد صلى الله عليه وسلم، ولنا نبي اسمه المسيح عيسى بن مريم، ولنا أنبياء ورسل. ولكل من ذكرهم القرآن الكريم من الأنبياء والرسل هم أنبياء نقر بنبوتهم لأنهم نهلوا من نبع واحد. وولدوا وعاشوا في منطقة عربية. وليس بينهم من وُلد في مكسيكو أو سيبيريا. وليس بينهم من دعا إلى عبادة إله غير رب العالمين. وكل منهم أدى دوره حسب تسلسل تاريخي وواقع اجتماعي وحضاري محدد. ونحن أمة لنا حضارتنا وتاريخنا وآثارنا ولنا عاداتنا وتقاليدنا، وطموحاتنا وأهدافنا. غايتنا الدنيوية

إعمار الأرض وليس خرابها، وإقامة علاقات إنسانية راقية محترمة، وغايتنا الأخروية رضا الله سبحانه.

وعلى هذا الأساس نطرح أنفسنا وهويتنا أمام الآخرين قبل أن نبدأ بأي حوار أو أي أسلوب إنساني لتحقيق التعارف الإنساني.

ونحن حسب ثقافتنا ومعرفتنا نرى العالم كله من خلال نظرتنا الإنسانية وهي القاعدة وما عداها استثناء. فالعالم قارات وأمم وشعوب، هناك الشعوب الأوروبية التي جل اعتقاداتها تستند إلى العقيدة النصرانية، وهناك شعوب في أفريقيا يدين قسم كبير منها بالإسلام، وقسم كبير أيضاً بالنصرانية وبالوثنية. وهناك في آسيا شعوب مسلمة كبيرة وشعوب بوذية وهندوسية وجانتية وكونفوشوسية وشانتية وهناك في أميركا مسيحية بروتستانتية وفي جنوبها مسيحية كاثوليكية.

نحن نعرف العالم حسب ثقافتنا ومعارفنا، ونعرف أن تصادماً حدث بيننا وبين الغرب الأوروبي، فاحتُلت بلادنا ثم تحررت وها نحن اليوم نسعى لصد كل التيارات التي تحول دون التعارف بيننا وبين الآخرين. آملين أن نلغي صدام الحضارات، نلغي العنصرية بكل أوجهها، نسعى مع الآخرين لإحقاق الحقوق المشروعة للشعوب في العيش بكرامة وحرية في أوطانها دون اعتداء أو استعمار أو احتلال.

إذاً فنحن نفتح باب التعارف الإنساني على مصراعيه مع أوروبا مع آسيا، مع أفريقيا مع أميركا. ولا يقتصر التعارف على جهة دون جهة، أو شعب دون شعب.

وبداية الأمر، نطرح التعارف كوسيلة من وسائل الوصول إلى إحقاق الحقوق والسلام العالمي، فهو في نظرنا تلبية لنداء إلهي قرآني طلبه الله سبحانه وتعالى من أمتنا. فقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: 13)

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت : 33-35)

إننا ندرك تماماً أن الحسنة هي الأسلوب السلمي وندرك أن السيئة الأسلوب العنيف.

(فمن خلال قراءة النص القرآني نلاحظ أنه وهو يختار أسلوب اللاعنف يشير إلى نتائجه الإيجابية التي تتمثل بتحويل الأعداء إلى أصدقاء يحملون الفكر ذاته ويتحمسون له ويعملون به)[1].

ولما كان رسول الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم قد بُلغ القرآن الكريم الذي فيه دعوة للتعارف فإننا نؤمن بأنه الأسوة الحسنة في الاقتداء. فعلى نهج سنته نتّبع، وندعو إلى التعارف الذي علمنا إياه هذا النبي الخاتم المبعوث رحمة للعالمين.

فالتعارف ليس اختراعنا وليس هو نظرية وضعية وضعها شخص أو دستور وضعي وضعه قانونيون وحكماء. إنه كلام الله عز وجل، نزله على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظل ساري المفعول إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وحضارتنا العربية الإسلامية وتاريخنا الذي سطرناه بأيدينا هو سلاحنا التاريخي الحضاري عبر آلاف السنين. فهذا التاريخ لم يسطره أجدادنا بالسيف والقمع والعدوان والاحتلال، إنما سطروه بالدعوة وبالكلمة الطيبة حتى وصل الدين الحنيف إلى أندونيسيا في جنوب آسيا وإلى سيبريا شمال روسيا وإلى بقاع الدنيا التي ما عرفت سوى الدعاة الداعين إلى النور والهدى. والبعد عن الضلال. ففي نفس الطريق نسير، داعين البشرية اليوم إلى الحق والتعارف والاحترام المتبادل.

---

(1) محمد حسين فضل الله، في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي، ص18، دار الملاك بيروت 1994.

إن التعارف كما أقره ديننا الحنيف مبدأ من مبادئنا الإسلامية الإنسانية ندرك أهميته خاصة في عالمنا اليوم.

فإذا كنا قد طرحنا أنفسنا وهويتنا وقصدنا وغاياتنا من هذا التعارف الإنساني فعلى الآخر أن يقدم نفسه إذا أراد ربط حبال التواصل معنا. وقد مضى ما مضى على التوجه الاستعماري الذي رسخ مفاهيم العداء والتصادم، فإذا كان الطرف الآخر قد تحلل من عقدة الانقضاض والاستعمار فمن المفترض أن يقدم نفسه اليوم دون عقد ودون أي التباس في التوجه نحو الأفضل من العلاقات الإنسانية الجيدة.

لقد التبس على الكثيرين من أبناء الغرب علاقة الإسلام بالإرهاب خاصة بعد أحداث الحادي عشر من الشهر التاسع، وحتى لا يكون هناك أي باب من أبواب التعارف الإنساني مفتوحاً، فقد قامت جهات عالمية لها أهداف فاسدة بتسخير كافة وسائل الإعلام لتشويه المسلمين والعرب وربطهم بالإرهاب. وفي خضم هذه الحملة، خرج بعض المفكرين الغربيين بمقولة صدام الحضارات ليقطعوا أي محاولة جادة للتفاهم بين المسلمين والغرب. بل راحت بعض الأوساط تترجم عداءها للإسلام والمسلمين بشن حرب ضد بعض البلدان الإسلامية كأفغانستان والعراق وتدمر شعبها إنسانياً وحضارياً.

لقد تناسى أكثر الغربيين أن كثيراً من المصالح المشتركة تربط الغرب بالشرق، وتربط شعوب أوروبا بالمسلمين والعرب.

فالغرب يحتاج ثروات العرب من بترول وممرات مائية ويحتاج بلدان العرب والمسلمين كسوق استهلاك كبير. والمسلمون والعرب بحاجة إلى التكنولوجيا والصناعات الثقيلة. وكل طرف بحاجة للطرف الآخر. لكن بعض كبار الرأسماليين يرون أن على الغرب أن يأخذ من أهل الشرق كل شيء ولا يعطيهم شيئاً، حتى يبقوا متخلفين عن ركب العلوم والتكنولوجيا والتقدم الصناعي والعلمي وغيره.

ولعل ما طرحه هنتغتون، في كتابه (صدام الحضارات) يدلل على أن بعض الغربيين تحكمهم أحكام مسبقة ومعايير جاهزة للتعامل مع العرب والمسلمين.

يقول هنتغتون:

(عالم ما بعد الحرب الباردة متعدد الأقطاب ومتعدد الحضارات، يفتقر إلى تقسيم واحد ومحدد، كذلك الذي كان في أثناء الحرب الباردة. وطالما أن التدفق السكاني الإسلامي والانبعاث الاقتصادي الآسيوي مستمران فإن الصراعات بين الغرب وحضارات التحدي سوف تصبح أكثر مركزية في السياسة الكونية عن أي خطوط تقسيم أخرى. من المرجح أن تستمر حكومات الدول الإسلامية في أن تكون أقل مودة والعنف المحدود المتقطع وربما الشديد سيحدث بين جماعات إسلامية والمجتمعات الغربية)[1].

ولم يفترض هنتغتون أن تكون العلاقات أكثر ودية. لأنه يريد بالمحصلة أن يقول بسيادة أميركا والثقافات الغربية على الثقافات الشرقية العربية والإسلامية.

---

(1) صموئيل هنتغتون، صدام الحضارات، ص 386، طبعة ثانية 1999، ترجمة طلعت الشايب.

التعارف الإنساني: تكافؤ المتعارفين

حوارية الند للند:

وفي هذا الإطار لابد أن نشير إلى أن التعارف الإنساني ينطلق من التساوي بين المتعارفين ولابد أن نعيد ونكرر، فنقول: إن الإسلام دين التعارف، وأن أي مسلم هو مع التعارف ومن طبيعته الفطرية أن يميل دوماً للتعارف مع الآخر، وإذا كان مفهوم التعارف قد اتخذ لدى غير المسلمين دافعاً مكتسباً، فإن القرآن الكريم الذي امتزج بالعقل العربي والشخصية العربية جعل من الميل إلى التعارف دافعاً طبيعياً تأصل وتجذر مع مرور الوقت.

واليوم، حين نطرح التعارف الإنساني ليشمل مساحة واسعة بين الغرب والشرق وبين جميع الأمم، فإن تقييمات جدية تظهر كل ساعة وهي تفتح الأفق لإمكانية التعارف أو عدمه، آخذة بعين الاعتبار أن ما يطرح من تنظيرات هو بعيد جداً عما يجري على الأرض العربية من احتلال وإبادة للإنسان العربي والمسلم.

فهل يكون تعارفٌ والشعب الفلسطيني واقع تحت الاحتلال والإبادة؟ أم هل يكون تعارف والقوات الأميركية تعيد سيرة الاحتلال الاستعماري واغتصاب الأرض العربية؟ وهل يكون تعارف وشعار القوى الاستعمارية الكبرى (الإسلام هو العدو الحالي للغرب وفي المستقبل)؟ من يتعارف مع من؟ وهل من جدوى لتعارف مفترض بين العالم العربي الإسلامي وقوى غربية ضعيفة، ليس لها من تأثير في صنع القرار أو تحويل مجرى التوجهات العنصرية التعصبية في بعض بلدان العالم الغربي؟

قبل العدوان على العراق، كانت الأصوات الغربية الرافضة للحرب تجتاح أوروبا وأميركا، وبعد عشرين يوماً من الحرب قالت استطلاعات الرأي إن المؤيدين للحرب أصبحوا أكثر قوة وعدداً حتى أن مجلس العموم البريطاني أصبح بغالبيته مع سياسة حكومته تجاه العراق، هذا التغير الذي يجري في الأفكار والتوجهات لا يدل إلا على مزاجية وتقلب في الاتجاهات ولا يدل على وجود مبادئ وثوابت راسخة.

فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يكون الحوار؟ كيف يكون التعارف؟ إذا كانت المزاجية تحكم الشارع الجماهيري الغربي، فكيف يمكن أن تكون كيانية التعارف وهيكليته؟

ويبدو أن الذي يفتقد للمبدأ الثابت لا يمكن أن يعطيك رأياً صادقاً تثق به، وموقفاً حقيقياً جدياً تجاه ما يسمى التعارف بين الشعوب. ويبدو مرة أخرى، أن النتائج المترتبة على العدوان على العراق جعلت كثيرين من الغربيين يقولون إن حضارة الغرب انتصرت وما على الشرق العربي المسلم إلا التسليم والقبول بقيم الغرب بدلاً من قيم الشرق المهزومة.

ومما لا شك فيه أن الموقف الحالي في أي آلية للتعارف هو الموقف الغربي، وأن الموقف الأضعف اليوم في أي آلية تعارف هو الموقف العربي المسلم.

يظهر أن الغرب بعد الذي جرى في العراق وفلسطين والمنطقة العربية برمتها، لم يعد يهتم كثيراً بالتعارف، ربما تكون الحالة هذه مؤقتة (وهذا ما نأمله) وربما لا تكون. وقد رأينا وربما نرى بعض الأصوات الداعية للتعارف بين الشرق والغرب قد خفت أو اختفت، لأن الانتصار الظاهري لبعض قوى الغرب المتمثلة بأمريكا وبريطانيا ارتفع صوته فوق كل الأصوات.

من هنا، فإنه من المفترض أن نضع مفهوم التعارف على المحك الحقيقي لنعرف لماذا ندعو نحن للتعارف باستمرار بينما بعض الغرب يصم أذنيه؟

الواقع أن الأصوات الغربية الداعية للتعارف نظرت إلى ما حدث في الحادي عشر من الشهر التاسع على أنه علامة فارقة في تاريخ البشرية. لذلك تساءلوا عن الأسباب وعمن وراء الأحداث، بل راح بعضهم ينظر إلى تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب نظرة متأنية، وتوصل بعضهم إلى قناعة تقول: إن ظلماً يقع على الشرق الإسلامي، وأن الحس الاستعماري ولّد الصدام بين طرفين متناقضين في الشرق والغرب. أما الطرف العربي الإسلامي تحديداً انطلق في الأساس نحو مفهوم التعارف من خلال مبادئه الدينية وطبيعته الإنسانية المنفتحة، لكنه رأى أن دعوته للتعارف فُهمت من قبل بعض الغربيين على أنها استسلام لمنهج الغرب وهجمته.

لكن جوهر المسألة يكمن في عدم التكافؤ والتوازن بين الطرفين المعنيين، ونعتقد هنا أن التعارف لكي يكون مجدياً ومؤثراً وناجحاً لابد له من وجود طرفين متعادلين في القوة، متعادلين في التأثير على المستوى الثقافي وكذلك الفكري وحتى على المستوى الإقليمي والسياسي.

فهل تحقق هذا التعادل والتكافؤ بيننا كطرف وبين الغرب كطرف مقابل؟

الغرب اليوم ينظر لنا نظرة دونية خاصة بعد تمدد الجبروت الأميركي والبريطاني في المنطقة العربية والإسلامية. فحتى عندما نرفع صوتنا من أجل التعارف، يرى بعض الغربيين أن هذا الصوت هو صوت المنكسر المهزوم في فكره وعقيدته وحياته الاجتماعية. ولو دققنا فعلاً في داخلنا لوجدنا أن خللاً واضحاً يدخل ثنايانا، فنحن - العرب والمسلمين - لنا عقيدة راسخة تدعو إلى القوة، بينما فينا ضعف وخلل. ولدينا حضارة عربية إسلامية عريقة، بينما نحن اليوم نتراجع عن اللحاق بركب التكنولوجيا الغربية واليابانية وغيرها. ونعزز الإقليمية في أقطارنا. ولدينا من المكونات الجغرافية والبترولية ما يجعلنا القوة الأعظم في العالم، بينما نحن نفرط بهذا الموقع الجغرافي الاستراتيجي ونتركه مستباحاً، خاصة في ممراته المائية وإنتاجه النفطي الهائل.

وبمعنى آخر، فإن التعارف المفترض ليس له ميزان صحيح في أساسه لأن خللاً ما يتغلغل في أحد طرفيه. لقد استشهدنا في البداية بقول لـهنتنغتون، وقلنا إن بعض المفكرين الأميركيين يفترضون أن العالم يشهد وسيشهد صداماً بين الحضارات. لكن هؤلاء الذين افترضوا الصدام وليس التعارف لم يكونوا ولن يكونوا بعيدين عن مراكز القرار السياسي.

ونعتقد أن الحرب الأميركية التي شنت على أفغانستان والعراق لا تبتعد كثيراً عن الافتراضات التي رسمها هنتنغتون أو فوكوياما، أو غيرهما. فهي في صلب التوجه الفكري الأمريكي الذي ينطلق أساساً من توهم خطر إسلامي على التقدم الصناعي التكنولوجي والاجتماعي الأميركي بشكل خاص.

وإذا انطلقنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ نحو تعارف مفترض فيجب أن نسأل أنفسنا إلى أين سنتوجه ومن الطرف الذي نحاوره، حتى نخلق حالة من الوفاق الإنساني حول أساسيات التعارف وموضوعاته. إن كثيرين من منظري السياسة الغربية يسخرون من طرح مفهوم التعارف. فهم مقتنعون بمنظومة فكرية واحدة، وهي ترسيخ سيادة الفكر الواحد والثقافة الواحدة، وما عدا ذلك لا يستحق كثيراً من التوقف. وعلى ذلك فإننا نعتقد أن طرح التعارف لن يصمد أمام طرح التصادم، فهناك في المدى المنظور شخصيتان متناقضتان في نظرة كل منهما للوجود والعالم أولاً ولمفهوم الحضارة ثانياً. وفي نظرة كل منهما لآلية التعارف وغاياته وأهدافه.

ونعتقد أن المنظومة الفكرية الأمريكية ليست فوضوية أو انفعالية، أو هي ردة فعل على حدث ما، إنما هي ممنهجة بشكل ذكي ومستندة إلى عدة أسس راسخة، أهمها الجانب العقدي المعتمد على صهينة الفكر الديني الأمريكي. وترسيخ مفهوم التفوق العرقي الأنجلوساكسوني تماماً مثل ما هو ترسيخ مفهوم شعب الله المختار لدى الجانب الصهيوني اليهودي.

وإذا كان الفكر الغربي الذي يبدو أنه ينقسم إلى قسمين، ويعرف موقفه تماماً من العالم العربي والإسلامي، فما هي آفاق معرفة هذا العالم العربي الإسلامي لنفسه. اليوم تظهر بوادر صراع بين الفكر الأمريكي والفكر الأوروبي، لكنه صراع لتثبيت وجود أقطاب دولية عدة، وليس لتغيير في البنى الفكرية والمواقف تجاه العقائد والثقافات والحضارات الأخرى، لأن الغرب بشكله العام ينظر إلى نفسه النظرة ذاتها التي ينظرها الأميركان والبريطانيون لأنفسهم.

التعارف أهداف وأمنيات:

على الرغم من كل ما طرحناه من ملاحظات إلا أن لنا موقفاً محدداً تجاه مفهوم التعارف بشكله العام. فنحن بالمحصلة مع هذا المفهوم كمبدأ أولي لكننا في الوقت نفسه نفترض احتمالات عدة معاكسة للتعارف. أي احتمال الصدام والتناقض والتصارع.

فماذا لو فرض علينا الصدام؟

أنرفع أيدينا مستسلمين؟ أم أننا نعيد النظر في قدرتنا الذاتية ونحصن أنفسنا لندفع عن هويتنا الخطر وعن شخصيتنا التشويه؟

ومع كل ذلك نرى أن الحوار الذي هو وسيلة التعارف هو من طبيعتنا الدينية والاجتماعية والنفسية، ويعتبر أحد أهدافنا الحياتية، وهو بطبيعته يدخل ضمن دائرة الدعوة الكبرى حتى يتعرف الآخر على عروبتنا وإسلامنا، وانفتاحنا وعدم تعصبنا وتسامحنا وسعينا نحو سعادة البشرية.

وليس غريباً أن يكون التعارف في هذه الظروف بالذات أمنية من الأمنيات، إذا كان من ورائه الاحترام المتبادل المتساوي المتكافئ، وإذا كان من ورائه تجسيد القيم السامية والأمن والاستقرار ورفع الظلم، وتحقيق العدالة بين مجموع البشر.

طبيعي أن التعارف تواصل. وهذا العالم اليوم صنع من وسائل التواصل ما عجز عنه الأقدمون. حتى باتت الكرة الأرضية قرية، يعرف كل سكانها مواقع

بعضهم وميولهم وعقائدهم. ولكن يبدو أننا في مخاض كبير إلى حد ما، فالتعارف الحضاري الذي نهدف إليه ونتمناه يراه الطرف الآخر سراباً أو وهماً. ويسعى الآخر لإلغائه كمفهوم قبل إلغائه كآلية.

إن مصلحة العالم اليوم تتطلب تعارفاً على مستوى العقائد والأفكار والسلوك الإنساني، ولعل هناك الكثير من القواسم المشتركة بين الشعوب التي تجاذب البشر ولا تنافرهم لكن أطرافاً ترى أن مصلحتها أو مصلحة وجودها تكمن في إلغاء أي تقارب بشري أو أي تعارف. فهي كالطفيليات التي لا تحيا إلا على امتصاص الأجسام السليمة والفتك بها. فالذي يضيرها أنها نبتت أساساً على تلفيقات وخيالات عقدية تنظر لمجموع البشر نظرة الريبة والشك والاحتقار وانبنت على فلسفة عنصرية مقيتة. ونعتقد أن أكبر عقبة في طريق التعارف الإنساني هي تلك الحركة الصهيونية ومفرزاتها. ونعتقد أيضاً أن هذه العقبة ستبقى قائمة وسيبقى الصدام الإنساني قائماً وإذا كانت المجتمعات الإنسانية حريصة على التعارف الإنساني فعليها واجب كبير وهو إزالة هذه العقبة من طريق التعارف والسعي لخلاص البشرية من آثارها ومفرزاتها.

إننا نطرح هذا الفهم على سبيل الكشف الحقيقي لطرفي التعارف. وحتى نبين أيضاً إننا لسنا جاهلين بهذا المنهج وآثاره وأسبابه والعقبات التي تحول دون تحقيقه. فإذا كان الطرف الآخر يقتنع بالتعارف ويحاول أن يتجاوب معه وبغض الطرف عن العقبات السياسة والاستعمارية والعنصرية فإن ذلك يخالف أبسط أسس التعارف. لأن غض الطرف عن تلك العقبات يعني أن نتجاوز الحديث عن أخطر ما يواجه البشرية من أخطار وتهديد.

لقد عرّفنا أنفسنا بشكل شفاف وواضح وليس لدينا أكثر من ذلك، وعلى الطرف الآخر أن يعرف عن نفسه دون اللجوء إلى النفاق السياسي والكيل بمكيالين.

التعارف الإنساني لأجل المصالح المشتركة

ما معنى المصالح المشتركة؟

جل ما يعرفه أبناء الأمم والشعوب عن المصالح المشتركة هو تلك المصالح التي تهدف إلى تعزيز التبادل الاقتصادي والتجاري ورفع مستوى المعيشة.

ولاشك أن العالم اليوم يقوم على الاقتصاد كونه أحد الركائز الهامة في بناء علاقات اقتصادية وتجارية بين الدول.

ونرى أن المصالح الاقتصادية بين الشعوب والأمم تدفعها تحالفات أحياناً وتناقضات أحياناً أخرى وجميعها خاضع للتنافس أو التعاون والتنسيق.

لكن المصالح المشتركة بين الشعوب لا تتوقف عند المصالح الاقتصادية المادية التجارية المالية فبنظرنا هناك مصالح مشتركة فكرية وأخرى دينية، وثالثة صحية وغيرها من المصالح المعنوية التي ليس لها علاقة بالاقتصاد الصرف على الرغم من أنها تؤثر في سلوكيات الناس وهم يبنون ا لعلاقات الاقتصادية تلك.

لقد افترض بعض المفكرين الغربيين أن المصالح تقوم على التبادل المادي الاقتصادي الصرف، حيث أن ما يحكم العقلية الغربية هو الحس المادي المالي التجاري وليس سواه.

فبقدر ما يقدم العالم العربي البترول يقدم الغرب إنتاجه المادي للعرب، من وسائل النقل إلى وسائل الراحة المنزلية وماشابهها.

ويرى بعضهم أن ما وصل إليه الغرب من بناء اقتصادي مالي ضخم، يعتبر جوهر الحضارة الغربية المعاصرة، ولذلك افترض أنه لابد من تصادم المصالح

الاقتصادية أي لابد من التصادم الحضاري وهذا ما افترضه هنتنغتون في صدام الحضارات.

فهو يرى أن القوة الاقتصادية والرفاه هي إحدى مسببات الصراع وتتبدى في النزاع على التجارة والاستثمار وقضايا أخرى ويرى أن الأرض تصبح فيها دول المركز مشاركة في صراعات خطوط التقسيم فيها. ويقول: (هذه القضايا بالطبع مصادر الصراع بين البشر عبر التاريخ، وعندما تتورط في الصراع دول من حضارات مختلفة فإن الاختلافات الثقافية تجعل الصراع أكثر حدة)[1].

ولهذا السبب فإن المصالح الاقتصادية والتجارية قد تصبح تنافساً وتحاسداً بين القوى وقد تؤدي إلى نزاعات.

لكننا كما قلنا ننظر إلى المصالح المشتركة نظرة أوسع بكثير من حدود التجارة والاقتصاد والتنافس. حتى هذا التنافس الاقتصادي ما كان ليحدث لو أن القوانين الأخلاقية والدينية حكمته وهذبته ووجهته نحو سعادة الإنسان الروحية قبل سعادته المادية.

ولابد في هذا الإطار أن ننظر إلى بعض المصالح المشتركة التي يعتبرها بعض الغربيين تجاوزاً لتحركهم أو تخطياً لأيديولوجياتهم الراسخة. إن كانت فكرية أو سياسية أو عقدية.

فمن مصلحتنا نحن ـ العرب والمسلمين ـ أن نحل مشاكلنا الخاصة بأيدينا، ومن مصلحتهم أن حل هذه المشاكل بأيدٍ عربية إسلامية يضر بهم. مصلحتنا اليوم عندما نرى الكيان الصهيوني الإسرائيلي يمتلك ترسانة الأسلحة النووية أن نمتلك قوة ردع مماثلة أو نزع هذه الأسلحة من أيدي الإسرائيليين.

---

(1) صموئيل هنتغتون، صدام الحضارات، ص 336-337 سبق ذكره.

فهم قادرون على نزع هذه الأسلحة من إسرائيل ولا يرضيهم أن يمتلك العرب والمسلمون أداة الردع المناسبة.

من مصلحتنا - نحن العرب والمسلمين - أن يُعامل المهاجر إلى دول أوروبية معاملة إنسانية خالصة ومن مصلحتهم أن يوضع هؤلاء المهاجرون في معسكرات كبرى مدة أشهر أو سنين ريثما تتم حلول مشاكلهم.

من مصلحتنا - نحن العرب والمسلمين - أن لا يتدخل أحد في حياتنا الدينية. ومن مصلحتهم أن يتدخلوا في شؤوننا الدينية والاجتماعية. فعلينا حسب رؤيتهم تغيير المناهج التعليمية، خاصة تلك التي تتناول تاريخ الصراع العربي الإسلامي - اليهودي الصهيوني.

ومن مصلحتنا - نحن العرب والمسلمين - أن لا يضيّق على الفتيات المسلمات الدارسات في الجامعات والمدارس الفرنسية، ومن مصلحتهم أن يمنع حجاب المسلمات في تلك المدارس أو الجامعات.

فالمصلحة المشتركة أن تزول هذه العقبات كي يكون التعارف جاداً مثمراً. ونحن نعتقد أن الاحتكام للعقل والمنطق والحق يوصلنا جميعاً إلى قواسم مشتركة تنهض بنا نحو عالم أفضل من التعارف والحوار والتواصل.

والإقرار المتبادل بالمصالح يعني من وجهة نظرنا أن يكون هناك توازن حقيقي لا يتعدى الخطوط الحمر حتى لا يحدث الصدام ويخسر أحد الطرفين مبادئه وهويته ومصالحه المادية والمعنوية، ونعتقد أن أخطر سؤال يواجهنا، هل يتنازل الغرب عن فهم خاطئ لأفق مصالحه، التي تضر بمصالح العرب والمسلمين؟

إن هذا يقودنا إلى عدة أمور تتفتح علينا وعليهم:

- المفاهيم الكبرى واختلاف المعايير.

- تعدد الثقافات والاعتراف بثقافة الآخر.

وهذان الأمران يرتبطان بقضية من نحن ومن هم؟ ما هويتنا، ما هويتهم؟ ما ثقافتنا ما ثقافتهم؟ كيف نفهم دورهم وكيف يفهمون دورنا؟ كيف نوفق بين دورنا ودورهم على مستوى المفاهيم، على المستوى الجغرافي الاستراتيجي على مستوى الثقافات، على مستوى الدور المنشود والمستقبلي؟

تعدد الثقافات
والاعتراف بثقافة الآخر

نعتقد أن صلة الغرب بالشرق الإسلامي قديمة جداً. فهي تمتد إلى ما قبل ميلاد المسيح بمئات السنين، وباختصار شديد فقد دون التاريخ ما تعرض له الحوض العربي من غزوات كبرى جاءت من الخارج كغزوات اليونان والاسكندر المقدوني. وغزوات الإمبراطورية الرومانية وكذلك الفارسية، وغزوات داخلية كالغزوة العبرانية لفلسطين وغزوات الفراعنة والهكسوس وغيرهم.

ولاشك أن تأثيراً وتأثراً حدثا بين الغزاة وأهل البلاد من العرب. فخرج التأثر والتأثير بنتائج حضارية جديدة ساهمت إلى حد ما في تقدم الشكل العمراني، والفكر الفلسفي، ونوعت الفكر الديني على الرغم من أن التأثيرات الدينية كانت سلبية إلى حد كبير، لأنها رسخت الوثنية وجلبت للمنطقة وثنيات الشعوب الأوروبية.

لقد حدث التعارف فيما مضى، ولكنه تعارف قسري مفروض، وهذا القسر ترك آثاراً سلبية كبرى على الفهم العربي الإسلامي لطبيعة العلاقات الإنسانية. فما زال أهل البلاد من العرب يعتبرون الغزوات اليونانية والرومانية والعبرانية وغيرها غزوات استعمارية ما جلبت للمنطقة غير الاستعباد وإذلال أهل المنطقة واستعبادهم، سرقة خيراتهم، ولهذا فإن التعارف الذي حدث لم يكن تعارفاً ذا منحى إنساني أخلاقي.

أما وقد تجاوزنا مرحلة الاستعمار العسكري الحديث والمباشر لأرضنا وباتت دول العرب والمسلمين مستقلة، واعترف بها العالم منذ منتصف القرن الماضي، فإن التواصل مع الغرب يفرض رؤية جديدة على العلاقات بين العرب والمسلمين من جهة والغربيين

من جهة أخرى إن الغرب يعترف إن كان ذلك حباً أو كان ذلك من قبيل عدم الاستطاعة بإنكار الثقافة العربية وتأثيراتها، يعترف بأن العرب والمسلمين ساهموا أكبر المساهمة في نهضة الفكر الغربي منذ أول البعثة ومروراً بالعصر الأموي ثم العصر العباسي وما بعده. ويعترفون أن العرب في الأندلس ساهموا في نقل الترجمات الفلسفية من اليونانية إلى العربية ثم إلى اللاتينية الأوروبية، ولم تقتصر المساهمة على الأدب إنما تعدتها إلى علوم الفلك والبحار والطب والكيمياء وبقية العلوم.

لكن بعض الحاسدين والعنصريين من الغربيين حاولوا تحجيم التأثير العربي الحضاري في الأوروبيين وقد فرّخ هؤلاء أحفاداً أمثالهم يرون أن العرب لم يساهموا في الحضارات الغربية. وراحوا يهاجموه الحضارة العربية ويقزمون دورها وينعتونها بأقبح الصفات.

واليوم، وفي هذا العصر، يخرج أمثال برلوسكوني رئيس وزراء إيطاليا ليهاجم الحضارة العربية والإسلامية، ويخرج عدد من غلاة المحافظين الجدد في أميركا وغيرها ليهاجموا العرب والمسلمين ويدعون إلى حروب صليبية جديدة ضد الشرق العربي الإسلامي.

وعلى الرغم من الدور الحضاري الثقافي الذي لعبه العرب والمسلمون في الحضارة الأوروبية فإن ذلك يعتبره الآن بعض مفكري الغرب خطراً على أوروبا.

يقول هنتغتون: (الثقافة الغربية تواجه تحديات من جماعات داخل المجتمعات الغربية أحد هذه التحديات يجيء من المهاجرين الذين قدموا من حضارات أخرى ويرفضون الاندماج ويواصلون الالتزام بقيم وعادات وثقافات مجتمعاتهم الأصلية والترويج لها. وهذه الظاهرة أكثر ما نراها بين المسلمين في أوروبا وهم أقلية صغيرة على أية حال)[1].

---

(1) هنتغتون، صدام الحضارات، ص 492 سبق ذكره.

فلماذا يخشون من الثقافة العربية الإسلامية؟

الواقع أن الذي يخشونه حدوث إقبال غربي على الإسلام وحدوث انقلاب من المسيحية إلى الإسلام. حتى أن هنتنغتون يقول إن ضعف المسيحية التي هي المكون الرئيسي للحضارة الغربية قد يقلل من شأن تلك الحضارة تدهور نسبة الأوروبيين الذين يظهرون إيمانهم بالدين أو يحافظون على الممارسات ويشاركون في الأنشطة الدينية.

وحين يحلل العقلية الغربية يرى (أن المعتقدات الغربية العالمية تفترض أن شعوب العالم بأسرة لا بد لها أن تعتنق القيم والمؤسسات والثقافة الغربية لأنها تجسد أرقى فكر ولأنها أكثرها استنارة وليبرالية وعقلانية وحداثة وتحضراً)[1].

ويقول: (الثقافة تتبع القوة وإذا كانت المجتمعات غير الغربية سوف تتشكل مرة أخرى بواسطة الثقافة الغربية فإن ذلك نتيجة لتوسع وانتشار القوة الغربية الاستعمار هو النتيجة المنطقية الضرورية للعالمية، وكلما مضت الحضارتان الآسيوية والإسلامية أكثر وأكثر في توكيد الصلة العالمية بحضارتيهما فإن الغربيين سيقبلون الصلة بين العالمية والاستعمار أكثر وأكثر)[2].

ففي هذا المنطق التحريضي المؤثر في كثير من الأوساط الغربية يخلق جو التوتر وعدم التعارف فالافتراض على هذا النحو يقطع الصلة النفسية القابلة للتغير وقبول الآخر.

فإذا كانت الثقافة الغربية مهددة بسبب ثقافة المسلمين المهاجرين فإن ذلك افتراض شكاك يظن بالآخرين ظن السوء.

---

(1) هنتغتون، صدام الحضارات، ص 500 سبق ذكره.

(2) هنتغتون، صدام الحضارات، ص 500 سبق ذكره.

والأوروبيون بشكل عام معنيون بالشفافية وتقبل ثقافة الآخر، ولا نعتقد أن الغربيين ساذجون إلى هذه الدرجة حتى يخافوا من تأثير الثقافة العربية الإسلامية، على الرغم من أن العرب والمسلمين أقلية إلى حد كبير.

العرب والمسلمون لا يرفضون الثقافة الغربية، فمن حيث الثقافة الأدبية تأثر المثقفون العرب بالفن الروائي الغربي، وكذلك بالمسرح، والشعر. ولكن إذا كان المقصود بالثقافة الغربية الفوضى الجنسية، وثقافة الإباحية وزواج المثلين والسحاق واللواط وما شابه ذلك من قمار ومنافسات غير شريفة، فإن الثقافة الإسلامية تريد للإنسان أن يكون منظماً محافظاً على القيم الإنسانية غير معرض للابتزاز والسرقة. وغير معرض للشذوذ.

فهل يخاف الغرب أن تبتعد الشعوب عن الفوضى الجنسية وثقافة الإباحية؟ لماذا يرفض هنتنغتون التوجه الثقافي الإسلامي في المجتمعات الغربية؟

فالرئيس الأميركي الأسبق نيكسون حذر بنفسه من الفوضى الجنسية التي تعبث بالمجتمع الأمريكي ويقر بنفسه بأن المجتمع الأمريكي بحاجة إلى دين وأخلاق تحد من التسيب الأخلاقي.

يقول نيكسون: (لقد أعاثت الثورة الجنسية عبثاً في المجتمع الأمريكي ارتفاع معدلات الطلاق تزايد المواليد غير الشرعيين وتكاثر العائلات ذات الأب الواحد. كما أفضى تعاطي المخدرات معادَة التركيب والتي لم تشرع الطبقة الوسطى والموسرة بالكف عنها إلا مؤخراً إلى المساعدة على ظهور طبقة متحضرة معدمة بصورة دائمة)[1].

ويقول: (يزعم نخبة هوليود أنهم يعكسون أحوال أميركا وأنها مريضة، وأرى أنهم إنما ينظرون في المرآة لأن هوليود هي المريضة وقيمها ليست قيم الاتجاه العام في

---

(1) ريتشارد نيكسون، ما وراء السلام، ص 254 ترجمة مالك عباس، الأهلية، الطبعة الأولى عمان 1995.

أمريكا والعنف والجنس الإباحي سلعتان رائجتان وهوليود بصدد جمع الأموال من وراء ذلك وهي إذ تتخلى عن مسؤوليتها في مراعاة المعايير الأساسية للحشمة عملت على تعجيل انهيار تلك المعايير في المجتمع لحد بعيد)[1].

فالإسلام بما فيه من تعاليم أخلاقية متكاملة يعزز الثقافة المستقيمة التي تحمي المجتمعات من الانهيار الأخلاقي ويبعدها عن الفوضى والإباحية. وبذلك تضمن لها تقدماً اجتماعياً جيداً خالياً من المعاناة والمشاكل وكثرة النفقات التي تذهب في تصنيع دواء الإيدز والأمراض الجنسية الفتاكة.

إذاً على الغرب أن ينفتح على ثقافة الآخر، وإذا ما ثبت أن ثقافة الإسلام تؤدي إلى انحراف المجتمع الأوروبي فما على الأوروبيين إلا أن يطردوا هذه الثقافة ويجعلوا بينهم وبينها قطيعة. أما إذا ثبت العكس فعلى أوروبا أن تفتح مدنها وجامعاتها ومنتدياتها للثقافة الإسلامية الصحيحة وبذلك تحقق مستوى رفيعاً من التعارف الإنساني والتواصل القائم على القيم النبيلة.

على أية حال فإن التعارف يفرض البحث بالمفاهيم السائدة في الغرب والشرق، حتى نصل من خلال هذا التعارف إلى الحد الأدنى من القواسم المشتركة بين الشعوب وهذه المفاهيم كثيرة ومنوعة. فمنها مفاهيم سياسية واجتماعية ومنها مفاهيم أخلاقية تربوية. ومنها أيضاً مفاهيم فكرية وثقافية. وبالطبع لن نستطيع الحديث عن كافة المفاهيم لأنها تشكل قاموس الفكر التاريخي لكل أمة أو لكل شعب.

---

(1) ريتشارد نيكسون، ما وراء السلام، ص 246 ترجمة مالك عباس، الأهلية، الطبعة الأولى عمان 1995.

لكن المفاهيم الكبرى كالحرية والعدل والمساواة وما يسمونه الديمقراطية وما شابه هذه المفاهيم تفرض نفسها دوماً على الفكر الإنساني، بل وتلاصق هذا الفكر من خلال ممارسات واقعية يومية.

ولكي ندرك معنى التعارف لابد أن ندرك معرفة جوهر هذه المفاهيم. هل نتفق على مضمونها أم لا نتفق، إلى أي حد يمكن أن نجد القاسم المشترك أو نقطة الالتقاء بين الشرق الإسلامي والغرب.

كيف نفهم الحرية؟ وهل يتوافق معنا الفكر الغربي في فهمنا لهذه الحرية؟ ما معنى الحرية السياسية وما معنى الحرية الاجتماعية؟

قد نتفق على تسمية المفاهيم ولا نعتقد أن مفهوماً كالحرية لا يستهوي كل مخلوق بشري، ولكن هذا المفهوم العام والواسع إذا ما خضع للتحليل والتركيب والتفسير نرى آلاف الآراء وقد تباينت أو اختلفت، فمفهوم الحرية الوطنية لدينا يقتضي أن تُزال كل أشكال الاستعمار بما فيه شكل الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين. فهل يراعي الغرب ويقر بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم دون أي عقبات أو رفض؟ مقاومة الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال لأرضه عمل مشروع تقره كل القوانين الدينية والوضعية، فلماذا يندد الغرب دوماً بأعمال المقاومة الفلسطينية ضد المحتل؟

مفهوم الحرية السياسية الذي يشمل حق الترشيح والانتخاب وتنافس الأحزاب هل يتناسب مع واقعنا العربي الإسلامي؟ وهل الحرية السياسية تقتضي تنافس حزبين على سدة الرئاسة كما هو الحال في أمريكا وبقية دول أوروبا. فإما الجمهوري وإما الديمقراطي. وإما المحافظون وإما العمل. إما الديمقراطي المسيحي أو إما الديمقراطي الاشتراكي، فإذا استمد الغرب طريقة حريته السياسية من بيئته وتراثه، فإن لنا بيئة

وتراثاً تفرض علينا تطبيق مبدأ الشورى السياسية، فهل يتوافق الطرح الغربي مع طرحنا حول الحرية السياسية؟

مفهوم حرية التعبير وحرية الرأي، يفهمه الغرب على أن لكل شخص الحق في التعبير عن رأيه السياسي أو الاجتماعي، ونعتقد أن ذلك مطلب إنساني. ولكن عندما تتجاوز حرية الرأي والتعبير الحدود الأخلاقية تصبح خطراً وفوضى. فكما لا يحق لإنسان شتم عيسى أو موسى عليهما السلام فلا يحق لأحد أن يجرح بشخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ولا يحق له أن يجرح بالقرآن الكريم والدين الإسلامي. ولا يحق اتهام الإسلام بالإرهاب أو التخلف أو غير ذلك.

الحرية الاجتماعية: تعني لدى الغرب أن يكون الإنسان حراً في ممارساته الشخصية وخاصة ممارسة الجنس. ويلحقها زواج المثلين (رجل لرجل، وامرأة لأخرى) وكذلك اللواط ومن ثم الطلاق والخيانة الزوجية.

ونحن نفهم الحرية الاجتماعية قطع دابر الفوضى الجنسية والإباحية، فهذه الحرية الشخصية دمار للأسرة، وللسلوك البشري كله، وفوضى تؤدي إلى الهلاك بسبب الأمراض النفسية والجسدية.

إن روسيا تشكو اليوم من أن ثلث أطفالها الحاليين ليسوا شرعيين. بمعنى أنهم لقطاء، (أولاد حرام وزنى) فهل يقبل الغرب بهذه الحرية التي نادى بها في مجتمعاته؟

يقول نيكسون: ما كان الماديون على اختلاف ألوانهم صائبين في تهميش أهمية النظام الأخلاقي الحضاري الذي يبني ركائز أي مجتمع حر. لقد حذر ماكس ويبر من تطور مادية أنانية هدامة بيروقراطية الروح البشرية إن صح التعبير التي هي قفص حديدي

يحبس الغرب فيه نفسه سينتهي به في خاتمة المطاف إلى إفساد شرعيته الأخلاقية. إن معظم أدواتنا الكريهة إنما هي في جوهرها مشاكل أخلاقية وليست مادية)[1].

فإذا كان الرئيس الأمريكي نفسه يرى أن النظام المادي الرأسمالي أدى إلى تدهور الأخلاق فكيف الحال بنا نحن الذين نحمل في أعماقنا قيم القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين. أنقول إن نيكسون على خطأ؟ أم أن الواقع الغربي هو هو بما فيه من فساد اجتماعي أخلاقي؟ فمفهوم الحرية الاجتماعية يحتاج إلى إعادة دراسة على ضوء الآثار السلبية التي عصفت بالأوروبيين. ومن ثم إعادة التخطيط التربوي الاجتماعي الذي مضى عليه عشرات السنين دون أن يجد حلاً أخلاقياً للمشاكل الاجتماعية المتفشية في المجتمعات الغربية، فإذا كان لابد من إيجاد قواسم مشتركة بيننا وبين الغرب فلابد أن يبدأ التعارف الإنساني بوضع المعايير المشتركة للمثل والشعارات الكبرى التي تحكم العقل البشري بشتى الاتجاهات.

إن الإسلام يطرح نفسه ويطرح بدائله على كافة المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية. ولم يتقوقع يوماً، بل هو منفتح على الجميع. ومن طبيعته طرح التعارف كوسيلة من وسائل التجاذب بين الناس. وهذه قيمه الإلهية واضحة لا لبس فيها. يطرح نفسه دون إكراه، وعلى العقل البشري أن يكون حيادياً في دراسته لهذه القيم والبدائل. حتى يكون على مستوى التعارف والحوار المجدي، مع الطرف الآخر.

وحتى لا يتحول حوار المفاهيم إلى صراع مفاهيم من المفترض أن نضع بين أيدينا افتراضات صنعها بعض مفكري الغرب ويقع على رأسها افتراض صدام الحضارات. وللحقيقة نقول: إننا مرة بعد أخرى نقتحم هذا العالم الفكري الذي يسمونه صدام الحضارات لنكتشف أن هذا الصدام المفترض تجلى في جوانب عدة قد تتسع وقد لا تنتهي عند جانب من الجوانب.

---

(1) ريتشارد نيكسون، ما وراء السلام، ص 252 سبق ذكره.

ما الذي يعنيه صراع المفاهيم؟

قبل قليل طرحنا مفهوم الحرية، كيف نفهمه وكيف يفهمه الغرب، وقلنا علينا إيجاد القواسم المشتركة لهذا المفهوم وغيره حتى لا نظل متقوقعين دون حل.

افترض بعض مفكري الغرب أن هناك بوناً شاسعاً بين مضمون مفاهيمنا ومضمون مفاهيمهم، وهذا ما سيؤدي إلى صدام الحضارات. ونحن نتساءل: ألا يمكن أن تمنحنا هذه المفاهيم دلالات قد تكون مغايرة للدلالات التي يفهمها الغرب ويجب الوصول إلى قواسم مشتركة بينها وبينها؟

لقد طرحوا مفهوم صدام الحضارات على أنه صراع مفاهيم بالدرجة الأولى. وما يشنه الغرب اليوم على الإسلام ليس إلا حرباً على المفاهيم الإسلامية التي انبثقت من الفكر الإسلامي وكذلك انبنت عليها الشخصية الإسلامية عبر أربعة عشر قرناً.

إذاً، من المفترض أن نفهم - ونحن نطرح التعارف الإنساني - لماذا يشن بعض الغربيين حرباً على الإسلام تحت ذريعة محاربة الإرهاب. ولماذا يُستثنى الإرهاب الصهيوني من الهجوم والمحاسبة؟

وهل يمكن أن نحقق التعارف الإنساني والمصالحة الإنسانية مع الغرب إذا بقي هذا الغرب غافلاً أو متغافلاً عن الإرهاب الصهيوني؟

يطرح بعض الغربيين مقولة: إن ما يفعله الصهاينة في فلسطين ليس إرهاباً، وهكذا يتضح أن المفاهيم التي أنتجها الغرب هي نفسها المفاهيم التي تنتجها الصهيونية، والواقع أن الصهيونية نتاج غربي وليس نتاج المنطقة العربية.

وعندما يرى الغرب أن (إسرائيل) هي الدولة الحرة والديمقراطية الوحيدة في الشرق العربي ألا يعني ذلك أن مفاهيم مشتركة تجمع الغرب والصهيونية ونتاجاتها؟

لقد أنتجت الثقافة الغربية مفهوم النازية والفاشية والعنصرية وأنتجت مفهوم الإرهاب منذ مئات السنين، فلماذا تنقلب اليوم ضد النازية والفاشية وتتغافل عن الصهيونية ومن ثم تتغافل عن هذا النتاج وتصدره إلى خارج دائرتها وتلصقه بالإسلام والعرب؟

ما الذي يجعل بعض الغربيين يتغافلون عن تطبيق مفهوم الحرية والديمقراطية في بعض الدول بينما يشنون حرباً إعلامية اقتصادية على دول أخرى؟

ما الذي يجعل بعض الغربيين يدافعون عن الوحشية الإسرائيلية ويسمونها دفاعاً عن النفس بينما يسمون المقاومة الفلسطينية إرهاباً وتخريباً؟

أليس ذلك جوهر الفهم لدلالات المفاهيم؟ نعم، فالصدام ليس بين وجود مادي حاضر ووجود مادي آخر، إنما هو صدام بين الدلالات الإسلامية التي رسخها الإسلام في التاريخ والفكر والشخصية وبين المعاني التي يفهمها الغرب قياساً على مبدأ مغلوط ورؤية مزدوجة. ويبدو أن بعض الغربيين لا يفهم حتى الآن مفهوم النفاق أو الازدواجية ويبدو أن الغرب لاسيما في جانبه الأمريكي يجيز النفاق السياسي ويجيز الازدواجية طالما هناك مصلحة خاصة.

من الذي يحاسب على النفاق السياسي؟

في المفهوم الإسلامي وتحديداً في مفهوم النفاق، يضع المسلم الحق في حسابه أن النفاق والكفر صنوان، وأن هناك ميزاناً دنيوياً لهذا النفاق يرتبط بالمجتمع وعلاقاته. وأن هناك ميزاناً أخروياً يرتبط بحساب الله سبحانه.

فما الذي يدفع بعض الغربيين للإحجام عن فهم النفاق؟ هل هناك حساب للمجتمع ونظرته للنفاق والمنافقين؟ وهل هناك حساب لميزان الجزاء والعقاب في المفهوم الأخروي؟

قد يكون هذا الأمر بسيطاً لدى بعض الناس، وقد يعتبرونه مسألة نظرية ليس لها وجود إلا في العقل والنفس وفي إطارها الإسلامي الضيق.

لكن النفاق نفسه يتحول أو يتطور لينتقل من الإطار الديني إلى الإطار السياسي، فما معنى أن يكون النفاق نفاقاً سياسياً؟

أليس النفاق السياسي أدهى وأمر؟ ألم ينافق بعض أعراب المدينة (يثرب) نفاقاً سياسياً مع اليهود أو قريش؟ فهل عرفوا أنهم منافقون؟ أو هل اعترفوا بأنهم منافقون؟ قد لا يكونون أحسوا بهذا النفاق لأن المفهوم نفسه يأخذ من الدلالات ما هو متباين بين شخص وآخر، وهنا قد تتباين التفسيرات والدلالات، فها هو نفاق الدنيا يصبح لدى بعض الغربيين تحالفاً ومؤامرة لصالحهم. ومن يتآمر لصالحهم يعتبرونه حليفاً استراتيجياً حتى لو كان في أقاصي الشرق الأوسط، وتنتفي عنه صفة النفاق أو التآمر.

فإذا كان التعارف الإنساني يفرض نفسه اليوم، فإن ما يُفرض على المتعارفين أن يصلوا إلى وفاق حقيقي حول دلالات المفاهيم الكبرى التي تشكل الركائز الثقافية لثقافة إنسانية مشتركة.

التعارف:
حوار مع المسيحية أم حوار مع الغرب؟

قد تختلف الآراء حول تمثيل المسيحية أو تمثيل الغرب، فبعض المفكرين يرى أن الغرب يمثل المسيحية، ويرى بعضهم الآخر أن الغرب نفسه أعلن منذ زمن بعيد علمانيته وعدم تمثيله للمسيحية.

وحينما نطرح مفهوم التعارف بيننا وبين الغرب أو العالم بأسره يجدر بنا أن ندرك من نحاور؟ فهل نحاور الغرب على أساس مسيحيته أم نحاوره على أساس علمانيته؟

والواقع أن ما بين الحوار مع المسيحية والحوار مع الغرب قصة درامية تطول تواريخها وفصولها وآلياتها. وتلتبس عقدها على كثيرين، فيختلط مفهوم الغرب بالمسيحية حتى أن بعضهم لا يفرق بين الغرب والمسيحية.

وحين يطرح التعارف كأداة من أدوات حوار الحضارات أو حوار الشعوب حتى يتعارف بنو البشر، نقع في مطب الخطاب الموجه إلى الغرب المسيحي دون الالتفات لجوهر هذا الحوار وهو حوار مع الغرب العلماني وليس الغرب المسيحي.

وفي هذا الإطار نتوقف عند بعض الأسئلة المشروعة:

1 ـ هل هناك حاجة لحوار إسلامي مسيحي في شرقنا العربي؟

2 ـ هل يمثل الغرب المسيحية حتى نتحاور معه على أساس ديني؟

3 ـ ما هي آلية الحوار، وأطراف الحوار وموضوعات الحوار؟

باختصار شديد، نرى أن هذه الأسئلة الثلاثة تفتح لنا الباب على مصراعيه حتى نفكر بشكل صحيح دون تعصب أو انحياز.

تنادت أصوات كثيرة تطالب بحوارات إسلامية مسيحية في داخلنا العربي، وكأن هناك صراعاً دام طويلاً ويجب إيقافه والحوار بشأنه. وفي الوقت نفسه ظن بعض المطالبين بهذا الحوار أن مشكلة مّا كبيرة موجودة بين الدين الإسلامي كدين، والعقيدة النصرانية كما جاء بها السيد المسيح عليه السلام.

وبداية، نرى أننا إذا نظرنا إلى العقائد السماوية وحتى بعض العقائد غير السماوية دون الالتفات إلى من يعتنقونها نرى أن هناك تمازجاً أو توحداً مع الخالق من جهة وفي العلاقة مع الوجود المحسوس من جهة أخرى. ففي العقيدة يؤمن الجميع بأحدية الإله الخالق الصانع المدبر، وفي التشريع، الحرامُ حرامٌ والحلالُ حلالٌ. وكل ذلك واضح لا لبس فيه. وهو بالمحصلة، تكريس لقيم كبرى واحدة فالحق حق والباطل باطل. والخير خير والشر شر.

ونعتقد أن هذه القيم الثابتة في جوهر الأديان والعقائد هي قيم إنسانية شمولية لا تخص قوماً دون قوم، أو فرد دون فرد، مهما كان جنسه وعنصره ومهما كان لونه وشكله. وفي الجوهر لا وجود لشعب الله المختار فكل من يريد أن يختاره الله له الحق أن يقترب أكثر فأكثر من خالقه حتى يطبق تماماً أوامره ونواهيه وينال رضاه واختياره.

ونعتقد أن الإسلام والمسيحية في جوهرهما ينبعان من منبع واحد فليس بينهما مشكلة وليس هناك صراع حتى يكون هناك حوار. على ماذا يتحاوران والأسس الجوهرية واحدة؟

قد يكون الانتساب أحياناً شعاراً يميز بين إنسان وآخر، ولكن الانتساب شيء والانتماء شيء آخر. فمن ينتمي لعقيدة ما يتمثلها قولاً وممارسة وسلوكاً. ومن يكون كذلك يلتصق بالعقيدة التي لا تنافر ولا تضاد بينها وبين أي عقيدة إنسانية أخرى. وبشكل مختصر جداً نرى أن من يطرحون مسألة الحوار اليوم يجب أن يكونوا

واقعيين. إن الغرب اليوم وبالأمس ومنذ القرن السادس عشر فصل الدين عن الدولة وتبنى العلمانية منهجاً حياتياً وفكرياً. وهو في الأساس رفض أن تظل الكنيسة تمثله. واليوم تمثل العلمانية قوميات متنوعة ذات لغات مختلفة ليس لها ما يمثلها أو تتمثله على المستوى الديني.

وبهذا المعنى، فإن الغرب اليوم لا يحاور على أساس حوار الأديان، فهو نفسه يرفض أن يمثل المسيحية أو تمثله المسيحية. فمفهوم الحوار عنده يقوم على أساس حوار ثقافي اقتصادي اجتماعي. وبمعنى آخر حوار شعوب مجردة من بعدها الديني العقائدي.

وعلى ذلك، فهل يصح أن نقول: حوار الإسلام مع الغرب؟ أم حوار المسلمين مع الغرب باعتباراتهم الوطنية والقومية وغيرها؟

لا شك هناك فرق كبير، فالحوار الذي يفترضه الغرب يتجه إلى العرب والمسلمين وليس إلى الإسلام. ولو كان العكس لراجَعَ الغرب نفسه وراح يطّلع بشكل منصف على جوهر الإسلام وتخلّص من عقدة لصق الإرهاب بالإسلام.

على كل حال، فإن الحوار مع الغرب، أو الحوار بين الشعوب كافة هو دعوة إسلامية عربية أصيلة لأنها تنبع من موقف مبدئي عقدي متسامح، يستند إلى جوهر الإسلام وكذلك جوهر المسيحية. ولكن على الغرب أن يدرك أن أي حوار لا بد أن يستند إلى فهم حقيقي لندّية المتحاورين وليس استعلاء مُحاور على آخر. فالحوار احترام متبادل متساوٍ وعادل حتى في أصغر التفاصيل وأدقها.

وإذا جاز لنا نحن العرب على وجه الخصوص أن نطرح وجهات نظرنا بشكل صريح ودون إرهاب أو استرهاب، لابد أن نوضح للغرب دائماً أن الشرق العربي صدّر المسيحية وصدّر الإسلام إلى أصقاع الأرض. وأن الغرب عندما تبنى المسيحية

كان يعيش حالة وثنية متخلفة. وعندما يتبنى اليوم أبناء الغرب أنفسهم الإسلام فإنهم يستكملون انتماءهم الإنساني الكوني. فهم إنما ينقلبون على الغرب المادي ولا ينقلبون على جوهر الدين الذي جاء به السيد المسيح عليه السلام.

ولا شك، أن آلية الحوار بين الشرق والغرب تستدعي أن يُطرح الإسلام كما هو، لا كما يحلو لبعض المسلمين أو لفئات دون فئات. وعلى الغرب العلماني أن يطرح مفاهيمه التي ينتمي لها وليس مفاهيم فئة أو أفراد تغلغل في عقولهم الحكم المسبق على الأمور.

وفي هذه الآلية لابد من المحاولات الحثيثة المستمرة لتوضيح ما استُشكل على عقول الطرفين. فليست الأحكام العامة ذات فائدة على هذا المستوى. فليس كل غربي عدواً. وليس كل مسلم إرهابياً. فهنا مسلمون سنّت لهم جميع الشرائع الإلهية والوضعية أن يقاتلوا المحتل والمستعمر ويحرروا أوطانهم. فمن الظلم والتعسف أن يبقى الغرب مغيّباً عن الحقيقة. وهناك في الغرب مسيحيون سلكوا مسلك المسيح في المحبة والتسامح والتعارف الإنساني.

وبعد كل هذا وذاك، لابد من التعارف والحوار، وإلا انقلب كل شيء إلى صدام شعوب وحقد شعوب يفقد الإنسان فيه كرامته أو روحه أو وطنه.

وإذا كان الغرب يؤمن حقاً بجدوى الحوار بين الشعوب فما عليه إلا التخلص من عقدة الفوقية أولاً ومن المخلفات النفسية الاستعمارية ثانياً. والعالم اليوم لم يعد بحاجة إلى كثير عناء حتى يتعرف البشر على بعضهم ويحترموا أنفسهم كبشر وإن تنوعت ثقافاتهم وتواريخهم وتراثهم وخصوصياتهم القومية والوطنية.

لقد طرحنا أسئلة ثلاث ونحن نستعرض مفهوم الحوار. ونعتقد أن التوقف عندها يدعونا للبحث السريع عن أجوبة شافية حتى نستطيع التوصل إلى توضيح آلية التعارف الإنساني وتوضيح جدوى الحوار بين الشعوب.

1 ـ هل هناك حاجة لحوار إسلامي مسيحي في شرقنا العربي الإسلامي؟

لقد حدد القرآن الكريم طريقة الحوار مع أهل الكتاب ، وحدد الإسلام حدود التعامل معهم فلا ظلم ولا اعتداء إنما حوار بالتي هي أحسن . وطالما أن المرجع الأساس لحل كافة المشاكل بين المسلمين وأهل الكتاب هو القرآن الكريم فلا وجود لمشاكل جوهرية بين الجانبين . فكل ما يعترض أبناء الأمة من مسلمين وغيرهم يجد له الحل الشافي في النظام الاجتماعي الذي رسمه القرآن الكريم ولعل أبناء الأمة من مسلمين وغيرهم بحاجة إلى ترسيخ مفهوم الدفاع عن الأرض في مواجهة الغزو الخارجي ، وترسيخ التفاهم العقلي حتى لا يكون مكان لخلاف أو تضاد أو تعارض .

2 ـ وهل يمثل الغربُ المسيحية حتى نتحاور معه على أساس ديني؟

نعتقد أننا يجب أن نفصل بين الغرب العلماني الذي فصل الدين عن الدولة . وبين الاعتقادات الجماهيرية الغربية التي تنتسب بشكل ما إلى المسيحية . وفي الحالتين فإن الحوار مع الغرب العلماني وكذلك الحوار مع من يمثلون المسيحية أداة مهمة من أدوات التعارف الإنساني . فلابد من توضيح كافة المواقف بين الأطراف المتحاورة ، حتى نصل إلى مستوى من العمل الإنساني المشترك الذي يعود بالنفع على الجميع . فإن كان الغرب الذي فصل الدين عن الدولة يمثل طرفاً للحوار بين الشعوب على أساس غير ديني فإننا نرى أن حواره معنا وحوارنا معه يدفعان بالجميع للتفاهم على حل كافة المشاكل التي نعاني منها جميعاً خاصة تلك المشاكل الاقتصادية والسياسية وإن كان الجانب الجماهيري الغربي غير الرسمي يمثل المسيحية فإننا أيضاً بحاجة للحوار معه على أسس دينية تحدد الموضوعات التي تستحق الحوار وأهمها إبعاد التعصب الديني وعدم الاعتراف بالآخر . والاتفاق على تحديد الأخطار التي تهدد الأديان وأبناء الشعوب التي تنتسب لها .

3 ـ أما آلية الحوار وأطراف الحوار وموضوعات الحوار

فمن المؤكد أن تلك الآلية تتم على مستوى لقاء الأفراد ، أو لقاء الجماعات ، من جمعيات وكنائس وعلماء دين . ونعتقد أن عقد المؤتمرات بشكل دوري ومنتظم سيصل بالنتيجة إلى غاياتها . وهي تقريب الإنسان من الإنسان وتضييق الهوة بين الجميع ، بل وبناء الجسور الفكرية والعقدية التي ترسخ التواصل بين كافة الشعوب .

إن الحوار نفسه يحدد من هم المتحاورون . ولاشك أن هناك من يمثل الإسلام من علماء ورجال فكر وكذلك من يمثل المسيحية والغرب . ونعتقد أن الذين يسعون للحوار يدركون أهميته ويدركون جدواه ونتائجه الإيجابية وآثاره المفيدة لكافة شعوب العالم .

الفصل الثالث:

التعارف وكسر الحواجز

أولاً: التعارف وكسر الحواجز

ـ هل هناك حواجز نفسية تمنع التعارف الإنساني الذي يطرحه المنهج الإسلامي؟

ـ ما هي هذه الحواجز إن وُجدت؟

ـ كيف نحطم هذه الحواجز لنصل إلى شفافية واضحة دون مواربة أو إضمار أمر يخالف ما نصرح به؟

الخوف الموهوم، عقدة التفوق، الشرق شرق والغرب غرب، تسييس الخوف، إنتاج الخوف من جديد، التفكير العدواني، الخوف من فقدان الامتيازات.

في مخزون كل أمة كم من الخوف، وهذا أمر طبيعي على مستوى الأفراد والجماعات، وقد يدفع الخوف أحياناً إلى اتخاذ مواقف تجاه الآخرين قد تكون سلبية، وتنعكس على السلوك، والتعامل وما بين الغرب والشرق قصص وحكايات تطول، وتمتد عبر التاريخ، وفيها من الدماء ما أريق ومن الضحايا ما لا تحصى أعدادهم. يمتد ليذكر بالحروب الصليبية التي امتدت مائتي عام. وليذكر بالاستعمار الحديث الذي بدأ بعد الحرب العالمية الأولى وما تزال آثاره ماثلة للعيان إلى يومنا هذا.

وهناك العشرات أو المئات من الحوادث والصدامات التي حدثت بين الشرق العربي الإسلامي والغرب بشكل عام.

هذا المخزون من التاريخ صنع لدى الطرفين حاجزاً من الخوف والشك والظن، جعل العلاقة تتحجم وتتقوقع أو تتوقف في بعض المراحل.

واليوم حين نطرح التعارف كوسيلة من وسائل التواصل الإنساني والحوار لابد أن نعترف أن حاجزاً نفسياً كبيراً يقف عائقاً في وجوهنا ونحن نسعى لهذا التعارف والتواصل.

ولكننا منذ البدء لابد أن نتساءل هل هذا الحاجز النفسي واقعي أم موهوم، أم أن هناك أطرافاً تساهم في صنعه؟

بعض الغربيين يرون أن الإسلام لا يعترف بعقائد الآخرين، فلذلك فإن الآخرين لن يعترفوا به.

بعض الغربيين يرون أن الإسلام يحض على الإرهاب ولذلك يجب محاربة الإرهاب.

بعض الغربيين يرون أن العنصر الأنجلوساكسوني يتفوق شكلاً وعقلاً وعبقرية على العرق العربي.

بعض الغربيين تتمركز في أذهانهم صورة العربي المتحجر المتزمت وصورة المسلم الذي يكفر غيره، أو يرفض التعامل معه لأنه بنظره كافر.

بعض العرب والمسلمين يرون في الإنسان الغربي مستهتراً بالأخلاق مستهتراً بالحرام والحلال.

بعض العرب والمسلمين يرون في الإنسان الغربي سارقاً لخيرات الأمة متآمراً عليها ولا يراها سوى بقرة حلوب لا ينضب ضرعها.

وهكذا هناك مئات المقولات التي تترسخ ذهنياً لدى الإنسان العربي والمسلم ولدى الإنسان الغربي، وجميعها تدخل في دائرة البعد النفسي. وتشكل حاجزاً أو حواجز تعيق التواصل والتعارف والحوار.

وحتى ينكسر هذا الحاجز النفسي لابد للغرب أن ينظر جيداً للمبادئ الأساسية للدين الإسلامي ويدرسها عن كثب حتى يتخلص من الأحكام العامة والمسبقة الصنع.

فالإسلام يعترف بجميع الناس ويقر بأن الله سبحانه خلق الجميع، فمنهم المؤمن ومنهم غير المؤمن، وقد حدد الله سبحانه العلاقة بين أمة الإسلام وغيرها من الأمم فلم يطلب الإسلام إجبار الناس على اتخاذ الإسلام ديناً.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ (البقرة: 256).

﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس: 99).

﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون: 6).

فهذه قواعد الإسلام الأساسية في معاملة المسلمين لغيرهم من حيث عقيدتهم. وقد جاء ذلك في تطبيق رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده.

فجاء في الوثيقة الدستورية الأولى التي أقرها النبي صلى الله عليه وسلم عندما قدم المدينة: (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم)[1].

وفي خطبة الخليفة الثاني رضي الله عنه في جيوشه التي توجهت لرد العدوان الفارسي قال: (وسوف تمرون بأقوام فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)[2].

والشواهد كثيرة وهي ليست لمجرد التسويق، إنما هي الشواهد الحية لطبيعة الإسلام المنفتحة على الآخرين.

ونعتقد أن النص القطعي من القرآن والسنة يكسر أول لبنة من لبنات الحاجز النفسي الذي يفترضه الغربيون.

وفي الخطوة الثانية لكسر هذا الحاجز نرى أن الإسلام ليس دين إرهاب إنما هو دين سلام وعزة وحفاظ على الأرواح. يقول تعالى:

﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (البقرة: 190).

ويقول تعالى:

﴿ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾ (المائدة: 32).

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام، 1/ 503.

(2) تاريخ الرسل والملوك 2/ 246.

صحيح أن الآية نزلت في نبي إسرائيل لكن الحكم العام يستفاد منه في أي وقت وأي مكان.

والواقع أن الذي روج لمقولة الإسلام دين الإرهاب هم أنفسهم الذين لا يريدون للسلام العالمي أن يعم البشرية. فمصلحتهم أن يظل الصراع الدموي محتدماً بين الشعوب، خاصة بين المسلمين وغيرهم. وذلك بسبب أحقادهم الدفينة على هذا الدين الحنيف.

ولعل من الغريب جداً أن ينشأ الخوف كحاجز بين المسلمين والغرب بسبب نظرة بعض الغربيين لأنفسهم بأنهم من عرق أسمى. خاصة الأنجلوساكسون الذين يشكلون اليوم القوة الأولى في الولايات المتحدة وبعض دول أوروبا. فتظهر قطاعات اجتماعية محددة في المجتمعات الأنجلوساكسونية فكرة عدم الاندماج مع العرب والمسلمين وذلك بسبب تربية عنصرية غذاها بعض المتعصبين الغربيين. وقد روجت لهذه الأفكار منظمات شبه عسكرية وأحزاب يمينية متطرفة. كمنظمة كوكس كلان والحزب اليميني الفرنسي بزعامة لوبان. وبعض الأحزاب النازية الجديدة في النمسا وألمانيا.

ولعلنا نذكر التأثير القوي في هذا الاتجاه منذ جان كالفن الذي اعتبر الانجلوساكسون شعب الله المختار على غرار مقولة التحريفيين من اليهود.

فالخوف من الانفتاح على العرب والمسلمين يدفعه الحرص الموهوم على النقاء العرقي الغربي والواقع لو نظرنا إلى واقع الحركة الاجتماعية في أوروبا نجد أن هذه النظريات نظريات غير صحيحة البتة. فالاندماج بين الشعوب خاصة بسبب الزواج وصل حداً كبيراً، فليس هناك قيود بين البشر طالما أن الغاية وحدة المشاعر الإنسانية والغايات الإنسانية الكبرى.

وفي المنحى ذاته فإن بعض الأوساط الغربية تروج لمقولات تسيء للشخصية العربية المسلمة باعتبارها صورة الإنسان المتحجر المتزمت والمتعصب. أو صورة

الإنسان صاحب البترول والذي ليس له هم سوى الدخول إلى الملاهي الليلية الأوروبية. وصرف الأموال على موائد القمار. والدخول في مغامرات لا أخلاقية وغير مقبولة للذوق الإنساني. وتضيع بين الصورتين صورة الإنسان العربي المسلم المتعلم المثقف المنفتح على الآخرين بسلوك إنساني رفيع وأخلاق إسلامية عالية.

فهذه الصور التي كانت إلى وقت قريب مادة إعلامية دسمة لوسائل الإعلام التي تسيطر عليها بعض الأوساط الصهيونية والغربية المتعصبة، صنعت أحد الحواجز النفسية في وجه التعارف الإنساني والتواصل البشري.

ولعل كسر هذا الحاجز يبدأ من خلال استبعاد التعميم والنظرة الشمولية للأمور، وهذا بالطبع هو الطريق العقلي لمقياس الظواهر الاجتماعية والشخصية بشكل موضوعي محدد.

صحيح أن بعض العرب والمسلمين لا يدركون خطورة تكفير غيرهم، فالغرب يرى أن بعض الحركات المسلمة ترى في الغرب كله كافراً يجب محاربته، هذا ما جعل بعضهم يأخذ موقفاً سلبياً تجاه العرب والمسلمين، يشوبه الحذر والخوف من التعامل معهم ولكن جوهر الإسلام لا يكفر إلا من أشرك بالله. بل يدعو إلى طريق الإيمان الصحيح بالله الواحد ويدعو إلى التمسك بالأخلاق الدينية الراقية. بل إن الدعوة الإسلامية دعوة مسالمة تستند إلى الكلمة الطيبة والحوار الإنساني.

ولعل من أسباب وجود الحاجز النفسي بيننا وبين الآخرين، ما ترسخ في أذهاننا من نظرة عمومية لكل غربي من أنه غير أخلاقي يستهتر بالقيم ولا يفرق أو هو لا يعرف حدود الحرام والحلال.

ولعل بعض المظاهر غير أخلاقية المنتشرة في العالم الغربي أدت إلى وجود هذه النظرة لدى العرب المسلمين.

يرى العربي المسلم أن المجتمعات الغربية تحللت من الأخلاق بسبب القوانين الاجتماعية التي لا تحاسب على ارتكاب الموبقات، فأصبح الجنس المباح لغة الشارع،

والصداقة الجنسية بين الرجل والمرأة حلّت محل الأسرة الشرعية. ولا ضير من الحمل السفاح والأطفال غير الشرعيين، وليس هناك من قانون يربط الشاب أو الفتاة بعد أن يصلا سن الشباب. وكثيرة هي الأمور المشابهة.

إن هذه النظرة التعميمية صنعت الحاجز الأخطر بين الشعوب المتدينة والشعوب العلمانية ولكنها نظرة غير صحيحة قطعاً. فكما في كل أمة شذوذ وأخلاق متردية يوجد حفاظ على القيم وأخلاق رفيعة. وهناك الوجه الآخر لهذه الصورة التي رسخت في أذهان بعض العرب والمسلمين، فكما توجد أسر متفككة توجد أسر محافظة. وكما توجد فتيات أو نساء مستهترات، توجد نساء محافظات متدينات. وكذلك فإن الكثير الكثير من الشباب والرجال من يتمسكون بالأسس الأخلاقية السليمة، فليس الغرب كله مستهتراً وليس الشرق كله متديناً.

فليس في واقع الأمر ما هو كلي وتعميمي. وعلى هذا الأساس فمن المفترض على الإنسان العربي المسلم وكذلك الإنسان الغربي أن يحكم على الأمور بما هي عليه وليس بما هي في تصوره وأحكامه المسبقة.

فعلى الغرب أن لا ينظر لسكان الشرق العربي الإسلامي على أنهم متوحشون متخلفون لا يستحقون الوجود، وعلى الشرق العربي الإسلامي أن لا ينظر لسكان العالم الغربي على أنهم ضد الله والدين والأخلاق.

ولعل أخطر ما سبب وجود الحاجز النفسي آثار الحملات الصليبية الاستعمارية الجديدة التي تعرض لها العالم العربي والإسلامي.

فالإنسان العربي لا تغيب عن ذهنه ذكريات ذلك الاستعمار الذي اقتسم الوطن العربي وقسمه إلى دويلات وممالك وإمارات. وما أدى ذلك إلى انقسام وتنافر بين أنظمة الحكم العربية والإسلامية. وزرع الدولة القطرية بدل الدولة العربية الواحدة. فالاستعمار هو السبب المباشر في هذا الضعف العربي والانقسام. وهو

يتحمل مسؤولية إقامة كيان غاصب على أرض فلسطين وتشريد ملايين من الشعب العربي من فلسطين ومنذ أكثر من ثمانين عاماً تتفاقم الآثار السلبية بسبب تلك الحملة الاستعمارية على الأمة وعلى أوطانها.

فإذا كان الغرب قد نفض يديه من الحقبة الاستعمارية وانقلب على الحس الاستعماري وأصبح مع الحرية والتحرر لكل شعوب الأرض فإن الإنسان العربي والمسلم يرى في ذلك خطوة إلى الأمام وليس إلى الخلف، خطوة من شأنها أن تعيد النظر في الحلول النفسية التي من شأنها كسر ذلك الحاجز النفسي واعتبار ما جرى مرحلة مضت، لكن على الغرب أن يعترف بخطئه الذي ارتكبه تجاه المنطقة العربية.

وللتخلص من الآثار النفسية السلبية التي خلفتها مرحلة الاستعمار في العشرينات من القرن الماضي على الغرب أن يعيد النظر في مسألة فلسطين الشائكة. ويضع الحق في نصابه وينظر بشكل جدي للحل الوحيد لهذه القضية وهو عودة الفلسطينيين إلى ديارهم.

ونعتقد أن السعي الجاد نحو نزع الآثار السلبية لمخلفات الحملة الاستعمارية وتشريد شعب فلسطين سيؤدي إلى زرع بذور الثقة بين الشعب العربي والمسلمين وبين الغرب وسيكون باباً للتواصل والتعارف مفتوحاً دون عوائق وحواجز نفسية.

ولعل ذلك يقودنا إلى الاعتراف المتبادل بتحمل أجزاء من المسؤولية الأخلاقية والأدبية والقانونية تجاه القضايا الحساسة والمصيرية والتي أدت فيما مضى إلى التنافر والصدام وعدم الثقة بين الشرق والغرب.

ثانياً: التعارف الإنساني وإعادة النظر إلى التاريخ

منذ زمن بعيد اتجه المؤرخـون والرحالـة والمستشرقون نحو صياغة ما للتاريخ العربي الإسلامي. وقـد عمـل الكثيرون منهم على تشويه التاريخ العربي المسلم، وكذلك الشخصيات العربية والإسلامية.

وقـد تعاملوا مع مئات الأفكار والقضايا من منظور عدائي حتمته ظـروف التصادم والتدافع بين الشرق والعرب.

ورسخوا مفهوم انتشار الإسلام بالسيف، في أوساط المجتمعات الغربية وكذلك رسخوا عشرات المفاهيم الخاطئة عن العرب والمسلمين.

وعبر مسيرة دامت أكثر من أربعة عشر قرناً شهدت المنطقة العربية تدافعاً غربياً ومستمراً تعرض فيه الوطن العربي إلى غزوات وحروب ومقاومة، منحت صفحات التاريخ مادة دسمة وحركت أقلام المؤرخين على شتى نوازعهم وأهوائهم.

وبغض النظر عما كشف من زيف للكتابة التاريخية، واعتراف الكثيرين بالتجني على التاريخ العربي الإسلامي فإن أبرز ما يدور من حوارات تاريخية هو حول الحروب الصليبية والفتح العربي للأندلس.

- كيف ننظر إلى الحروب الصليبية؟
- كيف ننظر للفتح العربي للأندلس؟
- كيف ينظر الغربيون لهذا الفتح؟

شكلت الحروب الصليبية التي دامت حوالي مائتي عام أخطر مرحلة تاريخية مر بها الوطن العربي، ولأنها كذلك فقد أثيرت حولها وما تزال تثار تساؤلات كثيرة

وقراءات عديدة لأسبابها ونتائجها. وليس من شك أن أي حوار بين الغرب والشرق لابد أن يتناول ظاهرة الحروب الصليبية وآثارها الحالية على المستويين.

(عندما يجري الكلام عن الحوار الإسلامي المسيحي لكون المقصود به في أغلب الأحيان مجمل العلاقات التي تشكلت بين هاتين الديانتين على مدى أربعة عشر قرناً)[1].

(إن فتح المسلمين إسبانيا وصقلية، والحملات الصليبية إلى فلسطين واستيلاء الصليبيين على القدس وثأر صلاح الدين الأيوبي وانتصاره عليهم وطرد العرب المسلمين من إسبانيا وسقوط القسطنطينية وهجوم الأتراك العثمانيين على مناطق البلقان وتمرد الشعوب الإغريقية والسلافية كل هذه المصادمات والمجابهات العنيفة ألبست رداء الدين والحرب من أجل تعزيز راية الإيمان ضد (الكفرة) (الجانب الآخر) ولهذا فإن مقولات مثل الحروب المقدسة أو الجهاد ترسخت في وعي ومدارك وفي لا وعي أتباع الديانتين كأوامر إلهية لا راد لها)[2].

وقد لعب الحس الديني دوره في صنع دورة التاريخ الدموية حتى في العصور الحديثة فحتى أثناء الاحتلال الفرنسي الاستعماري لعدد كبير من الدول والذي جرى بوتائر عالية في القرنين 19-20 شغل الشعار الديني حيزاً في الأيدلويوجيا الغربية الاستعمارية وهو ما حصل في احتلال الفرنسيين للجزائر سنة 1830م الذي وصفه مطران باريس في تلك الفترة بأنه انتصار للمسيحية على الإسلام[3].

(1) الكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص 36-37 ترجمة الدكتور خلف الجراد، دار الفكر المعاصر، بيروت ط 1، 2000.

(2) الكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص 36-37 ترجمة الدكتور خلف الجراد، دار الفكر المعاصر، بيروت ط 1، 2000.

(3) المرجع السابق.

وعلى الرغم من التراكمات الفكرية السلبية التي صنعتها الحروب والصدامات بين الشرق والغرب إلا أن الصلات غير العدائية راحت تظهر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي فإذا كنا ندعو إلى إعادة النظر إلى التاريخ وتقييم نتائج الصراعات فإننا نكون قد استكملنا الطريق الذي بدأه بعض الذين انفتحوا على بعضهم من العرب المسلمين والغربيين بشكل عام ولا شك أن الفيلسوف الروسي فلاديمير سولوفيوف والمستشرق الفرنسي لويس ماسينيون من أوائل من دعوا إلى إعادة النظر في العلاقة بين الشرق والغرب.

أما سولوفيوف فقد حاول اكتشاف الأسس التاريخية الدينية البعيدة لإقامة وحدة روحية بين الديانات المتحدرة من (الأمة الإبراهيمية)، وفي هذا السياق يمكن أن نعد سولوفيوف أباً مؤسساً لحوار بين الديانات الكتابية.

أما ماسينيون فقد بنى موقفه تجاه الإسلام انطلاقاً من فكرة الاتصال والارتباط الديني بين المسيحيين والمسلمين. وقد رأى في هذا الارتباط بالذات آفاقاً واقعية عريضة أمام الفهم المتبادل بين أتباع هاتين الديانتين الكونيتين. فماسينيون كان ذا فضل ريادي في البحث عن التقريب بين مصالح الأوروبيين والمسلمين في مجال الاتصال والحوار الديني[1].

وقد أثارت مخاوف ماسينيون الشديدة مظاهر التصادم بين الحضارة الغربية المعاصرة والمجتمع الإسلامي التقليدي التي كان من نتائجها وفق رأيه أن المجتمع الإسلامي أصبح أمام خطر حقيقي يتجلى في فقدان شخصيته المستقلة.

وإزاء بعض هذه الأفكار المبكرة والتي طرحت للبحث في إعادة النظر في العلاقة التاريخية بين الشرق والغرب، لابد أن تتوسع الدائرة لنستقرئ بعض تفاصيل الموقفين، الموقف الغربي والموقف العربي تجاه مسألتين طرحناهما في بداية هذه الفقرات.

---

(1) المرجع السابق: ص 118.

المسألة التاريخية الأولى: الحروب الصليبية.

والمسألة التاريخية الثانية: فتح الأندلس.

في المسألة التاريخية الأولى، ظهرت هنا وهناك من أوروبا المعاصرة آراء تقول: إن الغرب مسؤول عن آثار الحروب الصليبية، ويجب أن يعتذر للشرق عن هذا الخطأ التاريخي الكبير. بينما يرى بعضهم غير ذلك، إذ أنه إذا كانت الحروب الصليبية خطأ فادحاً وقعت فيه أوروبا، فإن الفتح العربي لإسبانيا أيضاً يعتبر خطأ فادحاً، إذ أنه بكل الأشكال احتلال واستعمار. فإذا أراد الغرب أن يعتذر للعرب والمسلمين عما ارتكب من مجازر بحقهم في الحروب الصليبية، فعلى العرب أن يعتذروا لأوروبا وخاصة إسبانيا عن استعمارهم لها واحتلال أراضيها.

وهنا يقع الإشكال الكبير، فبحسب رأي بعض الغربيين لا يعتبر احتلال إسبانيا فتحاً حضارياً مهما قدم العرب فيها من حضارة مادية وفكرية. وبحسب رأينا فإن الفتح العربي لإسبانيا نشر حضارة مادية وفكرية وأدبية ما كان يحلم بها الغرب.

وبحسب رأي بعض الغربيين فإن الحروب الصليبية جاءت رداً على معاملة المسلمين للمسيحيين ويزداد الإشكال توسعاً دون التوصل إلى صيغة متقاربة تخلص من هذه الآراء المتباينة وتفتح الطريق لتقويم آخر ينطلق إلى المستقبل دون الخوض في تفاصيل تحمل المسؤولية عن كل ما حدث في القرون الوسطى.

على أي حال، فإن الآراء تتباين وتتناقض كثيراً فيما بين المفكرين والمؤرخين الغربيين حول الحروب الصليبية وآثارها. وهذا ما يجعل البحث في إعادة تقييم التاريخ أسهل مما لو كان الغربيون جميعهم ينظرون نفس النظرة.

عشرات من هؤلاء المؤرخين وصفوا الحروب الصليبية بالبربرية المتوحشة بينما وصفوا الفتح الإسلامي في الأندلس فتحاً حضارياً راقياً[1].

---

(1) انظر كتاب الصليبيون في الشرق، ميخائيل زابوروف، نشر دار التقدم موسكو 1980.

يقول زابوروف، واصفاً مذبحة القدس على يد الصليبيين: (إن حمامات الدم وعمليات النهب الشاملة المقترفة في القدس قد حجبت المآثم والوحشيات المقترفة في أنطاكية. وفي المسجد الأقصى ذبح الصليبيون ما لا يقل عن 10 آلاف شخص)[1].

ويتساءل زابوروف: (هل أسفرت الحملات الصليبية عن عواقب طويلة الأمد نوعاً ما؟ هل كان لها إلى حد ما خير في حياة شعوب الغرب والشرق؟ وهل حملت شيئاً ما ذا قيمة وفائدة؟ إن مشاريع الفرسان الاغتصابية التي قامت تحت الراية الدينية قد انعكست بصور مختلفة في مصائر مختلف الدول الغربية الأوروبية)[2].

ويقول مستنتجاً: (إن الحملات الصليبية كانت بالنسبة لبلدان شرقي البحر المتوسط كارثة حقيقية، ذلك أن الصليبيين حملوا إليها الخراب في سياق عشرات السنين واجتاحوا ونهبوا المدن والقرى في آسيا الوسطى وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر واستحقوا عن جدارة كرهَ وازدراء شعوب الشرق الأمامي. ولقد تسبب الغزاة في الانحطاط لمراكز الشرق الأدنى المزدهرة اقتصادياً وثقافياً).

ولعل الأخطر في تقييم هذا المؤرخ لمسار التاريخ الصليبي قوله: (منذ أواسط القرن التاسع عشر وُضع تمجيد الحملات الصليبية في خدمة السياسة الاستعمارية التي انتهجتها الدول الأوروبية في آسيا وأفريقيا. وفي سنوات الحرب الإمبريالية العالمية الأولى وضعت الدعاية الصليبية موضع الاستعمال)[3].

وأخيراً يطرح زابوروف ما نحن بصدده، مسألة التعايش بين الشعوب والتعارف والتواصل حيث يرى: (أن قوى السلام تناضل بدأب وثبات ضد تسعير الحقد والكره بين الشعوب وضد الأوهام السياسية، معارضين السياسة البالية القائمة على الحملة الصليبية بالأفكار الإنسانية أفكار توطيد السلام وأمن الشعوب. إن تاريخ

(1) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 123.

(2) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص328.

(3) المرجع السابق، ص 346.

الحروب الصليبية الحقيقي يبين وهن وبطلان إضفاء الصفة المثالية على هـذه الحـروب. وعقم المحاولات أياً كانت لاستعمال سيوف الصليبيين القروسطيين ودروعهم الصدئة لما فيه الإضرار بقضية توطيد السلام)[1].

ولعـل إعـادة النظـر فـي التـاريخ بيننـا وبـين الغـرب يفـترض أن يـترك الغربيـون صلتهم النفسية بالماضي الصليبي، فما حدث دوّنه التاريخ، إن كان وصمـة عـار علـى جبين من افتعلوها أو قاموا بجرائـم إنسـانية خلالـها، أو كـان لأسـباب أخـرى ونتـائج أخرى لا تخضع للنبذ أو الذم.

وفي كل الأحوال، نـرى أن الحـوار مع الغـرب أو التعـارف كمبـدأ نطرحـه مـع الآخر لابد أن يضع الأمور فـي نصابـها، وعـدم التغـاضي عنـها إذا كـان هنـاك مجـال للتعاطي معها من خلال رؤية جديدة منفتحة وحوارية.

ولابـد أن نـورد هنـا ملاحظـة فـي السـياق العـام. وهـي أن البابـا الحـالي فـي الفاتيكان أصـدر مرسـوماً اعتـذرت فيـه الكنيسـة الكاثوليكيـة لليـهود عمـا لحقـهم مـن العسـف المسيحي والظلـم الأوروبي حسـب رأيه. فلمـاذا لـم يحـاول البابـا أن يفتـح صفحة تاريخية جديدة مع الإسلام والمسلمين؟ لماذا لم يقدم اعتذاراً لـهم عـن مجـازر الحروب الصليبية التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من أبناء العروبة والإسلام؟

لا نريد التعليق على هذه المسألة ولنتركها للزمن القادم. فلربما أعـادت الكنيسـة الكاثوليكية تقييمها لتلك الحروب واستطاعت أن تتجاوز عقدتها.

ونحن في صدد طرح التعارف الإنساني لا نريد أن ندور في الحلقـات المفرغـة ولا نصل إلى حل لإعادة تقييمنا للتاريخ. ونعتقد أن التواصل المستمر والتعارف كفيلان بأن يُعاد التقييم لمسار التاريخ حتى نصل إلى غايات التعارف الإنسانية العالمية.

---

(1) المرجع السابق، ص 348.

ثالثاً: التعارف وإعادة النظر في المفاهيم المنحرفة

قد أشرنا في صفحات سابقة إلى الحوار الثقافي والفكري، وتناولنا التباينات الحاصلة بين فهمنا وفهم الغرب للمفاهيم الإنسانية الكبرى كالحرية. لكننا ونحن نطرح مفهوم التعارف ومنهجه نجد أن بعض المفاهيم المنحرفة تشكل إحدى المشكلات العالقة والتي يجب التوصل إلى قواسم مشتركة بشأنها. أو إلى حكم عقلي إنساني عليها.

وهذه المفاهيم المنحرفة هي:

1 ـ العنصرية.

2 ـ التعصب الديني.

3 ـ الإرهاب.

5 ـ حروب الإبادة.

6 ـ العولمة.

لعل هذه المفاهيم ليست مفاهيم نظرية، بقدر ما هي مفاهيم تتبناها مجموعات بشرية أو بعض سياسات دولية.

العنصرية:

فالعنصرية ليست مصطلحاً جديداً في نشأته، إنما هو قديم في بعض تجلياته، لكنه عندما يصبح منهجاً تتبناه دولة أو حركة أو حزب، يصبح خطراً على مجموع البشر، لما فيه من حس فوقي، وشعور بالتفوق على باقي الأصناف البشرية، ولما فيه من توجيه دموي تخريبي إرهابي.

ويتفق العالم اليوم من حيث المبدأ على أن العنصرية حركة هدامة من حيث نظريتها وممارسة أصحابها.

لقد اتفق العالم بأسره على إدانة العنصرية في جنوب إفريقيا، ونظام وحيد لم يدنها هو النظام الصهيوني في كيان إسرائيل.

وطالما أن التوجه الإنساني بشكل عام ضد العنصرية كما كان ضد النازية والفاشية فإن اتفاقاً مبدئياً تجتمع عليه الأمم والشعوب.

وهذا ما يجعل حركة التعارف الإنسانية سهلة إلا إذا وقفت بعض التيارات الشاذة المنحرفة لإعاقتها.

وفي الإطار التعارفي الإنساني لابد أن تظل حركة محاربة العنصرية دائمة فعالة حتى يتم للبشرية القضاء على آخر أشكال النظريات العنصرية الهدامة.

إننا حين نطرح على طاولة التعارف والتواصل الإنسانيين مفاهيم خاطئة، فإننا ندرك أن هذه المفاهيم هي الأخطر اليوم على السلم العالمي والتعايش بين الشعوب.

لقد قضي على نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا وناميبيا وبلدان أفريقية أخرى وبسبب ما قد يكون الخوف أو الرعب، وقد يكون التحالف المصلحي، فقد أحجم العالم عن استكمال قضائه ومحاربته للعنصرية. إن الصهيونية اليوم تمثل آخر معقل من معاقل العنصرية في العالم. وعلى العالم أن يفصح عن رأيه الصحيح في هذه الحركة دون خوف أو رعب أو دون مبررات مصلحية.

في عام 1975، صدر قرار الأمم المتحدة، اعتبر الحركة الصهيونية حركة عنصرية. وقد لاقى هذا القرار صداه في الأوساط العالمية. لكن الملفت للنظر أن أميركا رفضت هذا القرار وكذلك فعلت بعض دول أوروبا الغربية. لكن القرار غير الملزم نزع الشرعية الأخلاقية تماماً عن الحركة الصهيونية التي جعلت من (إسرائيل) أداة لتنفيذ أبشع أنواع العنصرية في التاريخ المعاصر.

لكن الدول الأوروبية الغربية تعاملت مع جنوب أفريقيا عندما كان النظام العنصري متحكماً في رقاب الأكثرية السوداء تعاملاً آخر حيث قاطع معظمها ذلك النظام وحوصر إلى حد كبير ولم يبق من يتعامل معه سوى الكيان الإسرائيلي وبريطانيا بشكل غير معلن. وانتهى عهد الفصل العنصري وأصبح شعب جنوب أفريقيا سيد نفسه منذ مئات السنين.

ولكن، لماذا يتوقف الغرب عند آخر أشكال العنصرية الفاقعة والمكشوفة؟

في عام 1992م، ضغطت أميركا وكذلك بعض دول أوروبا لإلغاء قرار الأمم المتحدة الذي يساوي الصهيونية بالعنصرية. وألغي القرار وظلت الممارسات الإسرائيلية ممارسات عنصرية بكل ما تعني الكلمة من معنى.

ربما اعتبر بعض الغربيين أن الصهيونية ليست حركة عنصرية، وبذلك نقف نحن والغرب إزاء الصهيونية كأحد المفاهيم المشكلة بيننا وبينهم.

لكننا في هذا الصدد نطرح أمام العالم، والعالم الغربي تحديداً، قضية لا تخفى على أحد، هي قضية جدار الفصل الذي أقامت جزءاً منه حكومة شارون وتنوي استكماله ليكون فاصلاً حقيقياً بين الشعب الفلسطيني وأراضيه المصادرة.

قد نختلف مع الغرب حول المقاومة المشروعة للشعب الفلسطيني. وقد يفسر كل منا مفهوم العمليات الاستشهادية حسب رؤيته. وقد يسمونها عمليات إرهابية وإلى ما هنالك من التفسيرات لهذا الإشكال، ولكن الجدار العازل ليس مسألة محلية منحصرة، فهو مسألة تشابه إلى حد بعيد جدار برلين الفاصل وبعض الجدر التي كان يقيمها البيض حول أحياء لا يُسمح للسود تجاوزها في جنوب أفريقيا وحتى في نيويورك نفسها.

فمسألة الجدار رفعت إلى محكمة العدل الدولية التي تمثل العدالة الدولية حسب رأي الأمم المتحدة والدول المنضوية تحت علمها.

المحكمة تتشكل من خمسة عشر قاضياً من بلدان شتى، وبعد مداولات طويلة أقر جميع القضاة باستثناء القاضي الأمريكي أن الجدار غير شرعي وغير قانوني وعنصري وعلى إسرائيل أن تفككه، وتعوض للفلسطينيين المتضررين بسببه خاصة هؤلاء الذين فقدوا أراضيهم وممتلكاتهم. الموجودة أصلاً في أراضي الضفة الغربية المحتلة. وهذه المحكمة أدانت جرائم الحرب في البوسنة وأدانت تفجير لوكربي وما زالت تحاكم ميلوسيفيتش رئيس صربيا السابق لاتهامه بارتكاب جرائم حرب والتزمت جميع الدول بطلبات هذه المحكمة لأنها تعتبر نفسها ملتزمة أخلاقياً بها وبقراراتها.

عندما صدر قرار محكمة العدل الدولية خرج كبار المسؤولين الإسرائيليين بتصريحات في غاية العنصرية. أحدهم قال: (قرار المحكمة سخيف). والآخر قال: (المحكمة من مفرزات اللاسامية). وثالث قال: (ما هنالك من أوصاف بذيئة).

ولعل السخف في نظر كل القانونيين وقواميس الشعوب يندرج تحت قائمة طويلة من جدول المعايير الأخلاقية. وبالمحصلة فالقرار السخيف يعني أنه قرار غير أخلاقي.

قضاة يمثلون صفوة القانون الدولي، بل يمثلون خلاصة القوانين الوضعية البشرية على شتى مشاربها يصدرون قراراً قانونياً سخيفاً لا أخلاقياً. بينما إقامة جدار عازل عنصري يسرق أراضي الفلاحين الفلسطينيين هو شرعي وأخلاقي!!

من هذا الإطار نستطيع أن نعود إلى أدبيات الصهيونية لنرى أنها عنصرية بكل الأشكال، فجابوتنسكي، الأب الروحي لحزب الليكود، قالها يوماً مخاطباً كل يهودي: (أنت الحقيقة وحدك وما عداك باطل).

استجابت المفوضية الأوروبية لقرار المحكمة وطالبت إسرائيل بإزالة الجدار، وهذا يعني أن الأوروبيين راحوا يسيرون في الطريق الصحيح لإزالة العقبات من وجه التعارف الإنساني والحوار البناء بين الشعوب.

إن نزع الغطاء الأخلاقي عن إسرائيل إذا ما كرس بشكل صحيح سيكون فاتحة أكيدة لإزالة آخر ركن من أركان العنصرية في الأرض. ونعتقد أن الغرب الذي يدافع عن الحرية والديمقراطية بحاجة إلى خطاب واحد لا ضبابية فيه ولا ازدواجية ولا الكيل بمكيالين. فقد حان الوقت الذي تُزال العقبات فيه من طريق التقارب بين الشعوب. وقد وصل العقل الإنساني والتفكير البشري إلى درجة من النضج تؤهله فعلاً أن يدرك مصلحة البشرية جمعاء. فأن يضحي بإنسانيته وتواصله من أجل حفنة من العنصريين ذلك غير مقبول على المستوى العقلي الإنساني وعلى المستوى الأخلاقي لطبيعة هذا الإنسان.

التعصب الديني والمذهبي:

التعصب بشكل عام هو الانحياز إلى فكرة وعدم التزحزح عنها حتى لو كانت خاطئة. والتعصب الذي ابتليت به البشرية امتزج بدوافع عرقية ودينية وفكرية واجتماعية.

وقد خلق الله سبحانه وتعالى العقل البشري ليناً حوارياً وليس صلباً قاسياً جامداً. ولعل التواصل والتعارف والتقارب وكل ما شابهها من مصطلحات تحتاج إلى عقل مرن ونفسية شفافة لا تتحجر عند موقف.

ولعل من مظاهر هذه المجتمعات العالمية ذلك التعصب الديني والمذهبي الذي نشاهده هنا وهناك ويظهر بين الحين والآخر على السطح مثيراً المشاكل والحزازات والتصادم. لقد أثرت حالات التصادم على مر التاريخ إلى ظهور تعصب ديني أعمى. وراح أبناء العقائد يصفون بعضهم بعضاً بصفات تعصبية لا تليق بأبناء الجنس البشري. فالمسلمون يكفرون غيرهم والمسيحيون لا يعترفون بعد المسيح بأي ديانة أو عقيدة، ويتهمون المسلمين بالتخلف والتحجر. واتسعت الدائرة لتشمل التعصب الفكري والحضاري والقومي وحتى المذهبي، فهنا في المسلمين حالات من التعصب لمذهب على حساب مذهب وهناك في الغرب تعصب كاثوليكي ضد الأرثوذكسي وهناك البروتستانتية تتهم الكاثوليكية والأرثوذكسية بالجهل والقمع والاستعباد. وإضافة لذلك فقد ظهر تعصب القوميات في مراحل تاريخية عدة، وما تزال آثاره تطفو أحياناً على السطح.

فإذا كان لابد من التعارف والحوار فإن التعصب العقائدي والمذهبي يقف حجر عثرة أمام ذلك التعارف، وكذلك التعصب القومي المتحجر.

وفي التفاصيل فإننا نرى كثيراً من هذا التعصب الديني والقومي يظهر لدى المفكرين والكتاب ورجال السياسة وزعماء بعض الأحزاب والحركات.

وبسبب هذا التعصب افترض الكثيرون ممن لا يريدون الحوار مع الآخر (أن الحديث مع الآخر قد يحرجها ويجذبها إلى مواقع لا تريدها أو قد أسيء إلى طهارتها الفكرية والروحية من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأوضاع السياسية العالمية لا تريد للناس أن يقتربوا من بعضهم بعضاً لأنه قد يسيء إلى مخططاتهم السياسية التي تريد للمشاكل العالمية أن تبقى حية متحركة ضارية في أسلوبها العدواني التي تعيش في واقعنا السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي)[1].

والتعصب بحد ذاته يفقد التعارف خاصيته الإنسانية. فمن حق كل إنسان أن يحمل فكراً أو وجهة نظر في جذور ومفاصل هذا الفكر. ومن حقنا أيضاً أن نحترم مفردات فكره ليقودنا ذلك إلى احترام الآخرين لمفرداتنا الفكرية.

لقد تناول بعض المفكرين والسياسيين الغربيين فكرة الإسلام وكذلك فكرة القومية أو العروبة واتهم العرب والمسلمين بالتعصب ونعت الآخرين بالكفر أو التخلف القومي وحذر بعضهم من القومية العربية باعتبارها قومية عنصرية يظن أبناؤها أفضليتهم على غيرهم من القوميات الأخرى.

وبالمقابل، يرى الكثيرون من العرب والمسلمين أن أمم الغرب ضالة كافرة متحللة ولا يجب احترامها أو التعامل معها.

ونظن أن هذين الموقفين غذتهما أسباب تاريخية ودينية حتى أننا نلاحظ اليوم بعض من يحملون هذه الأفكار يشكلون تيارات هنا وهناك خاصة بعد أن شن الأميركان حربهم تحت شعار محاربة الإرهاب ثم الرد عليهم من قبل بعض التيارات العربية الإسلامية المسلحة.

---

(1) محمد حسين فضل الله، آفاق الحوار الإسلامي المسيحي ص37 سبق ذكره.

وحتى نسهل عملية التعارف ونزيل من أذهان الغرب ما ترسخ من مفاهيم مغلوطة عن العروبة والإسلام. لابد أن نوضح الأسس الإنسانية الإسلامية التي ترفض التعصب الديني والقومي من أساسه.

فالإسلام لم يقم لقوم دون قوم، إنما كان رسالة عالمية لكل الأعراق والأجناس فترى فيه العربي والأعجمي والإفرنجي، ترى فيه الأبيض والأسود والأصفر وكل الأعراق الموجودة على وجه الأرض.

ولو كان الإسلام ديناً متعصباً، لما نبذ العصبية القبلية والتعصب القومي والعنصري والتمييز. فالعصبية المقوتة التي يرفضها الإسلام تنشأ أساساً عن شعور غريزي بالأنانية والإسلام وقف منذ البداية ضد الأنانية. يقول الدكتور الزحيلي في وصفه للتعصب الديني الذي يرفضه الإسلام (يقوم التعصب على الاستئثار الذي يغلب على العقل والتفكير والسمو البشري والكرامة الإنسانية فهو جنوح وإفراط وتفريط في آن واحد)[1].

وقد وقف الإسلام من التعصب العنصري والتعصب القومي موقفاً جلياً، ويظهر ذلك في الحقائق التالية:

1 - إقرار مبدأ المساواة بين أفراد الجنس البشري. فهم سواسية في الحقوق والواجبات.

2 - إن اختلاف الأجناس والألوان واللغات آية من آيات الله وهي علامات تدل على عظمته وقدرته.

3 - التفاضل بين الناس يعتمد على مبدأ التقوى والورع والعبادة والصلة بين الإنسان وربه أو بين العبد وخالقه، أو بين الإنسان وما يحسن من أعمال. فلا مفاضلة على غير هذا الأساس. ولم يخلق الله شعباً فوق الشعوب. ولم يميز قوماً على غيرهم[2].

---

(1) محمد الزحيلي، الاعتدال في التدين، ص 224 منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية 1990م.

(2) المصدر السابق، ص 236.

الإرهاب خلاف مستحكم على المدلول

تصاعدت حدة الهجوم على ما يسمى الإرهاب، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر. وما زلنا نعيش حالة من التناقض الحاد بين فهمنا لهذا الإرهاب والفهم الغربي ولعل مصطلح الإرهاب من أكثر المصطلحات شيوعاً واستخداماً في وسائل الإعلام، لاسيما وسائل الإعلام الغربية.

فهذا المصطلح أخذ من الأبعاد والدلالات ما لم يأخذه غيره من المصطلحات. وبات العالم اليوم لا تشغله قضية حساسة كما تشغله قضية الإرهاب.

ولعل الأخطر من ذلك كله ما روجت بعض الأوساط الغربية الأمريكية من إلصاق الإرهاب بالإسلام والمسلمين. حيث أصبح يشكل هذا الهجوم أحد العقبات الكبرى في وجه التعارف الإنساني والتواصل والحوار.

وبناء على هذا الموقف الصادر عن بعض الأوساط الغربية الأمريكية تنادت أصوات متعصبة بصدام الحضارات وتصارعها. حيث أدى ما حدث في أمريكا إلى بروز صورة من التشنج الفكري والنفسي لدى أوساط المفكرين والمخططين الأمريكيين. أمثال فوكوياما وهنتنغتون وبعض المستشرقين المتعصبين أمثال برنار لويس.

وقد عملت كافة الأوساط الإسلامية في الغرب والشرق على إفهام الغربيين بأن الإسلام ليس له علاقة بالإرهاب، وأن الإرهاب ظاهرة عالمية وليست عربية أو إسلامية. لكن بعض الأوساط الحاقدة على العرب المسلمين ظلت تغذي الأوساط الغربية بمقولة الازدواج بين الإسلام والإرهاب. وكأنها لاقت فرصة جديدة لتأجيج الصدام بين العرب والمسلمين والأوساط الغربية.

الإرهاب كمفهوم عام مرفوض من قبل الجميع لأنه يعني في هذا الوقت الاعتداء على الآخرين بقتلهم أو تدمير ممتلكاتهم والاعتداء على بلدانهم وترويعهم ليسوا لأنهم أعداء، إنما لأنهم مفترضون أعداء. وبين أن يكون الإنسان عدواً وأن يُفترض أنه عدو فرق شاسع، يختلط فيه الحق بالباطل ويذهب ضحيته أبرياء.

وهنا لابد من التوقف عند الآية القرآنية:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (الأنفال: 60).

فهذه الآية الكريمة فسرها الحاقدون على الإسلام بأنها تحث على الإرهاب، وروجوا في الأوساط الغربية أن الإسلام يستند على قرآن يدعو إلى الإرهاب.

وقد اجتهد العلماء المسلمون في شرح هذه الآية وتبيان مقاصدها، واختصاراً للموضوع فإننا ندرك أن الآية الكريمة لا تدعو إلى الإرهاب الذي يعتقدونه اليوم، فالإعداد العسكري أحد العوامل النفسية في ردع المعتدي نفسياً حتى لا يفكر في الاعتداء على أرض الأمة وحرماتها. ولم يقل وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة لتقتلوهم وتقتلعوهم من ديارهم. ومن المفترض أن يعلم الناس أن كل آية نزلت بسبب. وحتى لو كان المعنى على الإطلاق فإن القصد من ترهبون به عدو الله وعدوكم يعني تردعونهم وتُدخلوا في قلوبهم هذا الردع النفسي حتى لا يعتدوا عليكم. وليس المقصود لتروعوهم فيتشردوا ولا يهنأ لهم عيش. وقد حدد الله سبحانه في الآية عدو الله وعدوكم وعدو الله هم المشركون الذين يؤمنون بالشريك مع الله ولا يؤمنون بالله ويحاربون الله ورسوله ويفسدون في الأرض. فإرعابهم وإرهابهم واجب حتى يكفوا عن الاعتداء على حدود الله وحين ننظر إلى قوله تعالى:

﴿ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف: 116).

فقد وردت كلمة استرهبوهم. والمقصود بها جلبوا الرهبة إليهم فانذهلت أعينهم لما رأوا من فعلهم. صحيح أنهم أوقعوهم في الرهبة كي يخدعوهم ولكنهم حتى في هذا المقام لم يقوموا بقتلهم أو تشتيتهم.

فمن يريد أن يقول إن الآيتين حوتا فعل الإرهاب عليه أن يدرك المقصود من ترهبون واسترهبوهم لا أن يفسرهما بمعنى الحض على الإرهاب بمعناه المعاصر الذي أرادوه.

وتستوقفنا في هذا المقام كله راهب - ورهبنة - والرهبانية. ألم يطلق اسم الراهب على راعي الدير أو الكنيسة؟ فلماذا هو راهب؟ وراهب على وزن فاعل وهو اسم فاعل فهل سُمي الراهب لأنه يرهب الناس؟ وهل الرهبنة تعني الإرهاب وهل الرهبانية تعني المؤسسة الإرهابية؟

بالطبع ليس المقصود كذلك. ومن المعلوم أن الراهب هو أقرب الناس إلى التعبد لله كما نعلم فكيف يكون إرهابياً؟ إن الراهب يرهب الله سبحانه لأنه أكثر مسؤولية أمام خالقه من عامة الناس.

يقول تعالى مادحاً هؤلاء الرهبان:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة: 82).

فلو كان الراهب إرهابياً لما وصفه الله سبحانه بأنه لا يستكبر، ومن المحال أن يكون الإنسان إرهابياً ولا يستكبر على الناس وعلى الدين.

ولو كان الراهب من الإرهاب فعلى الغرب نفسه أن ينظر في هذا المصطلح ليغيره ويرفضه. ولكن الراهب رجل دين نصراني عرف عبر التاريخ برعايته لدير أو كنيسة. وعرف بمساعدته للناس الفقراء وبزهده بمتاع الدنيا لأنه يحب ربه فيرهبه ويرهب عقابه أكثر من غيره من عامة الناس. والخوف من الله عز وجل ليس خوف إرهاب إنما هو خوف الخجل من التقصير. وخوف العبد الفقير لجلال عظمة الخالق.

ولا شك أن الفهم الخاطئ لمعنى الإرهاب أدى إلى جعله والعنف صنويـن فبمجرد قولنا إرهاب يتبادر إلى الذهن القتل، الخطف، التفجير، المواجهة المسلحة، السيارة الملغومة، وتظل صورة برجي التجارة الأمريكية وتفجير القطارات في إسبانيا ماثلة للأذهان لما لها من تأثير على أعين الناس في العالم أجمع.

والواقع أن على الغرب أن يدرك أن أول ضحايا الإرهاب المعاصر هم العرب الذين ذبحوا في مجازر جماعية في فلسطين منذ عام 1948م وظل الإرهاب يمارس ضدهم حتى هذا اليوم.

ولكن وعلى الرغم من ذلك، ظل المصطلح نفسه في القوانين الدولية يخضع للإطار النظري بشكل عام وقد برزت اختلافات كثيرة في تفسيره بين الدول، وذلك بسبب أبعاده الصراعية السياسية. ومن الواضح أن المعايير لتحديد مصطلح الإرهاب ما تزال تحكمها الأهواء السياسية. والمصالح الذاتية الخاصة. فإذا كان لابد من الوصول إلى قاسم مشترك بين الأمم والشعوب حول مصطلح الإرهاب فمن المفترض تحديد من المستفيد من وراء هذه الظاهرة. من المستفيد على المستوى الفكري أولاً، وعلى المستوى الاقتصادي ثانياً، وعلى المستوى الاجتماعي والسياسي ثالثاً.

فالعقل البشري الذي يجب أن ينزع نحو التعارف والتواصل الإنسانيين مطالب بمراجعة التنظيرات الفكرية للإرهاب. ومحاسبة من صدّروا المفهوم، بل محاكمة المفهوم محاكمة عادلة على ضوء القاسم المشترك بين الشعوب لمفهوم الإرهاب بحد ذاته.

إن التعارف الإنساني يستوجب من البشرية جميعها أن تسعى إلى مؤتمر دولي للإرهاب يتناقش فيه أبناء الشعوب حول هذا المفهوم ومن ثم التوصل إلى ذلك القاسم المشترك للدلالة والمعنى حتى لا يظل أبناء البشرية أسيري الفهم الخاطئ وأسيري الأهواء الذاتية التي تفسر الأمور تفسيراً غير موضوعي ويضر بمصالح جميع البشر.

وهنا لابد من التوقف موسعاً حول مفهوم الإبادة الجماعية الذي يدخل ضمناً في دائرة الإرهاب كما يفهمه الغربيون أولاً وكما نفهمه نحن - العرب والمسلمين -

لن نسرد ما جرى من إبادات جماعية في البوسنة والهرسك، ولن نسرد ما جرى من جرائم مماثلة في فلسطين. أو أفغانستان أو العراق.. فيكفي الجميع ما تتناوله وسائل الإعلام حتى يتذكر الجميع هذا الإرهاب الحقيقي الذي مارسه عنصريون متعصبون. لكننا نتوقف عند ما هو أهم وأخطر، إنه القوانين المقدسة الداعية للإرهاب، القوانين الدينية التي تتمسك بها بعض الجماعات والفئات. وتعتبر تنفيذها خضوعاً وتلبية لنداء الرب والأنبياء، هذه القوانين المتطرفة يجدر بنا نحن أبناء البشرية الداعون للتعارف الإنساني أن نعقد محاكمة دولية ونحاسبها. نحاكمها ونزيلها حتى لا يبقى مفهوم الإرهاب معششاً في أذهان أصحابها.

قد يستغرب بعض أبناء العصر حينما يسمعون أن فئات بشرية ما تزال تعيش رهينة لنصوص عنصرية دموية مصدرها كتاب مقدس أو تعاليم أنبياء أو زعماء دينيون. ماذا يفعل هذا الانفتاح الكوني لمواجهة الاسترهاب المقنن، الأسير للأهواء المنحرفة المغلق في التصنيف العرقي البغيض.

يفترض في شعوب العالم اليوم أن تستبصر العلاقات الإنسانية المتساوية على ضوء التعامل المتشابك واليومي بين كافة الشعوب.

فهذا العصر الذي نراه هو عصر ترسيخ التفاهم والتعارف، وليس عصر الإبادة العنصرية ونفي الآخر، وإذا كان بعض الشعوب والأفراد ما يزالون يفكرون بعقلية الانحراف فإن المجتمعات الإنسانية الواعية تتحمل عبء تخليص الكون من ذلك الشذوذ، وإعادة أصحابه إلى عقلية الاستقامة. أو حصارهم فكرياً أو إنسانياً أو نبذهم، بل ومقاطعتهم حتى لا يظلوا عقبة في وجه التفاهم الإنساني المتوقع والمنشود. فالعصر الجديد لا يحتمل أن يرى أناساً يقننون (يجعلون لها قوانين) للحروب وإبادة الإنسان وإهراق دمه ظلماً، ومحو هويته وتراثه وثقافته وأهدافه الوطنية والإنسانية.

من هنا كان واجباً علينا ـ ونحن ندعو إلى التعارف الإنساني ـ أن نشير بشكل واضح إلى أخطر عقبة من عقبات الوصول إلى حالة كونية من التفاهم والتعارف الإنساني، وليس غريباً أن نجمع آراءنا حول عقبة بارزة. وهي تطبيق القوانين الدينية العنصرية لإبادة البشرية.

صحيح أن بعض هذه القوانين تطبق هنا أو هناك، لكن هذه القوانين تأخذ لدى بعض الفئات طابع القداسة، حتى ليبدو لنا أن بعض المجموعات البشرية تتماهى تماماً معها، ولا تحيا بدونها فهي في اعتبارهم أوامر إلهية يجب أن تنفذ، وإن لم تنفذ فإن ذلك يعني معصية الرب ورفض أوامره.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن بعض القوانين الداعية للقتل والإبادة البشرية، تصدر عن قائد أو زعيم أو منظر لفلسفة وطنية أو قومية كهتلر، زعيم النازية الألمانية. ومع مرور الزمن وانقلاب الوضع الوطني أو القومي تنتقد أفكاره، وتنفصل العرى بين أوامره وأفكاره الدموية وجماهير وطنه وقومه، وبمعنى آخر، لا تأخذ أقوال البشر مكان القدسية التي لا تمس ولا تناقش، فكل فلسفة وضعية قابلة للتغيير والتغير فما كان بالأمس جيداً، قد يصبح اليوم سيئاً. وما كان بالأمس صحيحاً قد يصبح خطأ. لكن الأوامر ذاتها حين يتخيل منفذوها أنها صادرة عن الله الخالق، فلا مجال لرفضها ولو تقادم الزمن، فهي وحي من الله، دونت أو ظلت دون تدوين، وحفظت في الأذهان والنفوس، إلى أن سنحت الفرصة، وكُتبت وأصبحت كتاباً مقدساً يجب التقيد به.

المثال الصهيوني:

قد نكون في مرمى النقد أو الاتهام من قبل الآخرين، حين نختار المثال الصهيوني كمثال كبير على القوانين الدينية الداعية للإبادة البشرية، فتحت شعار اللاسامية المضلل قد نتهم بالعداء لليهود، إن نحن أظهرنا مساوئ هذا المثال الفريد من نوعه.

لكن هذا الشعار يتهاوى ويسقط ، إن نحن استطعنا مقاربة النصوص التوراتية المحرفة والتلمودية بأساليب القتل والإبادة الجماعية المستخدمة في فلسطين وغيرها ، والتي كانت وما تزال عرضة لتنفيذ أبشع الجرائم على مر التاريخ .

وحين نخاطب الآخر ليس بالإمكان أن نظل نجتر شعارات عاطفية غير مجدية . فلدينا وثائق العنصرية الصهيونية شاهدة حية ، ولدينا أدوات المقارنة بينها وبين السلوك الصهيوني العملي الجاري على الأرض .

ولعلنا ونحن نشهد أوروبا وشعوبها يعيدون النظر في الحركة الصهيونية وإسرائيل لابد لنا أن نتعامل مع هذا التطور بجدية وعقلانية ، حتى نستطيع أن نحقق عودة الأمور إلى نصابها ، وتخليص البشرية من خطأ ارتكب وقد آن الأوان لتصحيحه .

قوانين الإبادة المقدسة:

دُونت التوراة حسب كافة المصادر التاريخية في القرنين السابع والتاسع ق . م ويشير الحبر السموأل بن يحيى المغربي إلى ذلك بقوله : (فهذه التوراة التي بأيديهم على الحقيقة كتاب عزرا ، وليست كتاب الله ، وهذا يدل على أن عزرا رجل فارغ جاهل بالصفات الإلهية)[1] .

فعزرا هو كاتب التوراة أيام السبي البابلي كما تشير التوراة المكتوبة في سفر عزرا وكما تشير كل المصادر التاريخية .

وتدخل قوانين الإبادة التوراتية ضمن هذا التأليف والتدوين . وإذا نظرنا إلى الوضع النفسي الاجتماعي الاقتصادي السياسي الذي كان عليه حال المسبيين من بني إسرائيل ، أدركنا الأسباب التي دعت عزرا الكاتب أن يسن تلك القوانين الدموية العنصرية ، وهذا ما يسمى في علم النفس الارتداد العكسي للنفس . فالمسبيون كانوا

---

(1) السموأل بن يحيى المغربي ، غاية المقصود في الرد على اليهود ، مخطوط ص 49 .

مستعبدين مقهورين أذلاء، فبدافع الحقد والانتقام الشديدين، كتب عزرا هذه القوانين لينفس عن حالة القهر الشديدة التي عاشها أتباعه، وليس هي قوانين إلهية، ولا أنزلت على موسى عليه السلام، لكن عزرا ومن أتى بعده كرسوا مقولة: إن ما دوّنه عزرا هو التوراة الموحى بها من الله لنبيه موسى عليه السلام.

وهكذا ومنذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد وحتى الآن يُعمل بهذا الكتاب على أنه مقدس منزل من الله، ويجب احترامه والتقيد بأوامره.

يأتي القانون الأول في التوراة المكتوبة ليوحي بأن أتباعه أقوياء، لا يقف أمامهم مخلوق بينما كتابة هذا القانون على يد عزرا أيام السبي البابلي تمت وهم في أقسى وأسوأ حال من الاستعباد والضعف.

تقول التوراة: (حين تقترب من مدينة كي تحاربها، استدعها للصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتّحت لك، فكل الشعب فيها يكون للتسخير، ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمة فتغتنمها لنفسك. وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقِ منها نسمة ما، بل حرمها تحريماً الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويّين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك) سفر التثنية 20: 10-18.

فهذه القوانين لا تخرج عن دائرة الأمنيات الحاقدة في ذلك العصر الذي ألفت فيه. وحسب النص، فإن الهدف الأساسي لأتباع التوراة المكتوبة إما إبادة الشعوب أو استعبادهم والمدينة التي تصالحهم يُستبعد سكانها ويسخرون بشرط أن تكون من المدن البعيدة عن تخوم هؤلاء الأتباع. والمدينة التي تحاربهم يجب أن يباد رجالها وأما

نساؤها وأطفالهم فهم غنيمة أعطاها الرب لك وأما مدن القبائل العربية من كنعانيين وفرزيين ويبوسيين ومن شابههم فيجب أن يبادوا رجالاً ونساء وأطفالاً.

وليس في هذه القوانين ما يخص الأسرى. فلا أسرى في القانون الحربي اليهودي لأن الإبادة هي الأساس.

كيف يطبق هذا القانون اليوم؟

عندما بدأ تنفيذ المرحلة الحاسمة في احتلال فلسطين طبق قانون الإبادة البشرية في عشرات القرى والمناطق الفلسطينية، وإذا اقتصرنا على رواية المؤرخين اليهود الجدد، فإننا نرى اعترافات إسرائيلية بعشرات المذابح التي ارتكبت في فترة لا تتجاوز الستة أشهر. ومنها مذبحة قرية الطنطورة التي راح ضحيتها حوالي 260 شخصاً، ومذبحة قبية. وفيما بعد السموعي، وبعدها مذبحة الدوايمة. وقس على ذلك فيما بعد مذبحة كفر قاسم ودير ياسين. والمجازر التي ارتكبت في المسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي في الخليل.

طبق قانون التوراة المكتوبة بحذافيره، حيث اعتبر الفلسطينيون أحفاد الشعوب الستة التي ورد ذكرها في النص التوراتي السابق (وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما).

كان القتل يطال الرجال والنساء والأطفال دون استثناء، وهذا من تعاليم الرب التوراتي الذي اخترعه عزرا وبقية كهنة اليهود.

وفي الحروب التي خاضها الصهاينة ضد العرب عام 1956 ـ 1967م، طبق الجزء الآخر من القانون، فقد أباد الجيش الإسرائيلي الآلاف من الأسرى المصريين والسوريين والفلسطينيين والعرب (وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف).

وعندما يرتكب شارون مجازره المتواصلة اليوم، فإن كثيراً من القادة الصهاينة وخاصة زعماء الأحزاب الدينية المتعصبة يرون فيه يشوعاً جديداً. وقد يظن المرء أن

ذلك يأتي للتماهي بين شخص وشخص آخر. ولكن الموقف بهذا الوصف يجد له أبعاداً عنصرية دموية كثيرة.

فيشوع هو شخصية السفر السادس في التوراة المكتوبة، وحسب هذا السفر فإن يشوع طبق قانون الإبادة البشرية في أكثر من ثلاثين مدينة وقرية فلسطينية. وهذه بعض الشواهد التي وردت في التوراة.

تقول:

- (وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف) يشوع 21 : 6.
- (وكان لما انتهى إسرائيل من جميع سكان عاي) يشوع 8 : 24.
- (وأخذ يشوع (مقيده) وحرم ملكها وكل نفس بها، لم يبق شارداً) يشوع 8 : 25.
- (ثم حارب (لبنة) وضربها بحد السيف وكل نفس بها لم يبق شارداً ثم اجتاز إلى لخيش وضربها بحد السيف، وكل نفس بها ومن عجلون إلى حبرون حاربوها وضربوها بحد السيف وحرم يشوع كل نفس بها ولم يبق شارداً ثم رجع يشوع إلى دبّير وحاربها وحرموا كل نفس بها ولم يبق شارداً) يشوع 11 : 7-6.

وهكذا كانت عبارة مثل حرم كل نفس ولم يبق شارداً بمثابة القرار أو اللازمة في كل نشيد يمجد عملية الفتك والإبادة)[1]:

قوانين الإبادة في شريعة التلمود:

ما هو التلمود: هو مجموعة التعاليم التي ألفها أحبار اليهود وربانيوهم وفقهاؤهم المنتمون إلى فرقة الفريسيين. وهو عبارة عن ثلاثة وستين سفراً ألفت في القرنين الأول والثاني بعد ميلاد المسيح أطلقوا عليها المشنا. بمعنى المثنى أو المكرر. أي أنها تكرار وتسجيل للشريعة. ثم شرحت هذه المشنا فيما بعد وأطلق على هذه

---

(1) جرجي كنعان، سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية ص 65.

الشروح اسم الجمارا أو الشرح أو التعليق. وامتد تأليفها حوالـي خمسة قرون. بدءاً من الثاني وحتى السادس بعد ميلاد المسيح[1].

ومن أهم الأسفار في هذا التلمود ما يطلق عليه رسالة الوثنيين. وفيه جميع القوانين التي وضعها حاخامات اليهود عن العلاقة بين اليهودي وغيره.

يعتقد الربانيون اليهود أن أصل التلمود قد أنزل على موسى عليه السلام، وتُعتبر القوانين المبثوثة في التلمود أكثر قداسة من نصوص التوارة.

يُنقل عن الحاخام روسكي قوله: (التفت يا بني إلى أقوال الحاخامات أكثر من التفاتك إلى شريعة موسى)[2].

وجاء في أحد كتب الأحبار المسمى (همار): (الإنسان لا يعيش بالخبز وحده، والخبز هو التوارة بل يلزمه شيء آخر هو قواعد وحكايات التلمود)[3].

والقوانين الإرهابية الدموية التي يبثها التلمود أكثر تشدداً وأكثر وضوحاً من نصوص التوراة فيما يتعلق بالقتل الفردي والجماعي.

جاء في التلمود: (مباح قتل غير اليهودي. القتل أمر واجب عند التمكن من إجرائه. اقتل الصالح من غير الإسرائيليين. ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من باقي الأمم من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين).

وجاء في التلمود: (من العدل أن يقتل اليهودي بيده كل كافر، لأن من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً إلى الله).

وجاء أيضاً: (إن الكفار كما قال الحاخام أليعازر هم يسوع المسيح ومن اتّبعه).

---

(1) د. علي عبد الواحد وافي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص 24.

(2) الكنز المرصود في قواعد التلمود، الفصل الثاني.

(3) طبع هذا الكتاب سنة 1544م، ويحوي على تعليقات تاريخية وإشارية على التلمود لله.

لكن الرابي يهوذكيا. قال إن هذه اللفظة تشمل الوثنيين على العموم.

ويفسر التلمود أول وصية من وصايا موسى عليه السلام (لا تقتل) بأن الله نهى عن قتل شخص من بني إسرائيل.

ومن المفروض عندهم قتل كل من خرج عن دينهم، وخصوصاً النصارى، لأن قتلهم من الأفعال التي يكافئ الله عليها. وإذا لم يتمكن اليهودي من قتلهم، فمفروض عليه أن يتسبب في هلاكهم في أي وقت، وعلى أي وجه كان. ويعدون ذلك من العدالة، لأن التسلط على بني إسرائيل سيدوم ما دام واحد من هؤلاء الكفار. ولذلك جاء في التلمود أن من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود في الفردوس والجلوس هناك في السراي الرابعة. أما من قتل يهودياً فكأنه قتل العالم أجمع. ومن تسبب في خلاص يهودي فكأنه خلص الدنيا بأسرها. ولذلك قال موسى بن ميمون: (يُصفح عن الأمي إذا جدف على الله تعالى او قتل أو زنا بامرأة يهودية ثم صار يهودياً)[1].

وقد ذكر الكاهن الروسي برانايتس في كتابه فضح التلمود: أن حب سفك الدماء لدى الحاخامات ثابت في التاريخ العام لأنه جاء فيه أن (شاول) بولس خرج لمحاربة المسيحيين وهو لا يقصد إلا القتل أو الفتك بهم فتكاً ذريعاً. ومذكور في رسائل الرسل أن اليهود كانوا يهيجون سكان المدن التي يسكنونها ضد المسيحيين.

وقالت اليهود في كتابهم المسمى سدر حادوروت: إن الحاخامات تسببوا في روما في قتل جملة من النصارى، وقد أثبتت شواهد التاريخ القديم والجديد أن اليهود تسببوا في قتل مئات الألوف من النصارى الذين آمنوا برسالة المسيح عليه السلام في بدايتها.

---

(1) التلمود، سنهدرين، ص 17 نقلاً عن الكنز المرصود في فضائح التلمود.

وقد جاء في كتاب سدر حادوروت في الصفحة 127 : (أن الحاخام الرباني يهودا كان محبوباً من الإمبراطور الروماني عام 155م ، وقد أطلع هذا الحاخام صديقه الإمبراطور على حيل الناصريين (النصارى) قائلاً : إنهم سبب وجود الأمراض المعدية . وبناء على ذلك حصل على أمر بقتل كل هؤلاء الناصريين الذين يسكنون روما سنة 155م) . وجاء في الكتاب نفسه بعد هذه العبارة : (إن الإمبراطور مارك أوريل قتل جميع الناصريين بناء على إيعاز من اليهود) . وقال في الصفحة 125 : (إنه في سنة 214 بعد المسيح قتل اليهود 200000 مائتي ألف مسيحي في روما ، وكل نصارى قبرص) .

وذكر في كتاب سفر يوكاسين المطبوع في مدينة أمستردام 1717م : (أنه في زمن البابا كليمان قتل الإمبراطور ديوكليس جملة من المسيحيين . ومن ضمنهم البابوان كاييس ، ومرسليون)[1] .

ويظل هاجس هذه القوانين يسيطر على العقلية اليهودية ، حتى جاءت تنظيرات زعماء الحركة الصهيونية لتضيف قوانين جديدة أشد مغالاة وأكثر دموية .

فحتى قبل هرتزل نظر زعماء الصهيونية للإبادة بحق الفلسطينيين ، إذا ما تم استعمار فلسطين . فمنذ عام 1845م ظهر عدد من الحاخامات اليهود في أوروبا الشرقية الذين يدعون لاحتلال فلسطين وإبادة أهلها . وكان على رأسهم الحاخام يهودا القالي والحاخام موشي لايب . وعندما ألف هرتزل زعيم الحركة الصهيونية كتابه يوميات هرتزل وكتابه الدولة اليهودية سئل عن كيفية التعامل مع سكان فلسطين فقال : (يجب أن نقوم بحملة صيد كبيرة ونجمع فيها الحيوانات ونلقي بوسطهم القنابل القاتلة)[2] .

---

(1) التلمود ، سنهدرين ص 17 نقلاً عن الكنز المرصود في فضائح التلمود .

(2) يوميات هرتزل ، ص 221 ، منشورات مركز الدراسات الفلسطينية ، بيروت 1968 .

فبنظره يرى أن العرب في فلسطين حيوانات يجب إبادتهم حتى يتم قيام الدولة اليهودية الصهيونية.

ويستخدم منظرو الحركة الصهيونية وقادة إسرائيل التاريخ التلمودي، كدليل على شرعية القوانين الخاصة بإبادة العرب، لا سيما هؤلاء الذين يقودون حملات الاستيطان في أراضي الضفة الغربية.

فحسب النص التوراتي - ولا ندري مدى صحته - أن الله أمر بني إسرائيل أن يحاربوا قبيلة العماليق، وقد وعدهم الرب أن يمحو أي أثر لهم من على وجه الأرض. ويأتي المنظرون الصهاينة ليقولوا: إن العرب اليوم هم من عماليق ويجب إبادتهم.

فالحاخام إسرائيل هس مفتي جامعة بار إيلان سابقاً، كتب مقالاً عام 1980 في نشرة طلاب الجامعة بعنوان فريضة الجيئو سايد في التوراة يقول: (قريب اليوم الذي سنطالب فيه جميعاً بأداء فريضة إبادة عماليق). ويفسر الحاخام هس الأمر الذي يطالب بمحو ذكر عماليق بقوله: (إن الأمر لا يترك مجالاً للرحمة فهو - النص - يأمر بإبادة الأطفال والرضع وعماليق هو كل من يقدس الحرب على شعب الله).

وجاء في المقال المذكور: (فما دامت ذرية عماليق موجودة في العالم فلا الرب راضٍ ولا العرش. إذا أبيدت ذرية عماليق فالرب راضٍ والعرش راض).

أما الحاخام إبراهام أفذان، مفتي جيش إسرائيل في المنطقة الوسطى، فقد قال في مقال نشر له عام 1980م، في نشرة الجيش الرسمية: (إن الشريعة تبيح قتل المدنيين من غير اليهود وقت الحرب بما فيهم النساء والأطفال لأن أطيب الأغيار هم الأموات منهم)(1).

وقد نظّر لفكرة إبادة العماليق الجدد أي الفلسطينيين الحاخام يسرائيل أرئيل الذي نشر عام 1980م مقالاً في مجلة نيكودا (النقطة) لسان حال المستوطنين في الضفة الغربية

---

(1) درويش ناصر، الفاشية الإسرائيلية ص 47.

يقول فيه: (عملقة عصرنا تتمحور في كراهية العرب العميقة لبعثنا القومي في بلاد أجدادنا). وقد برر هذا الحاخام جرائم عصابات الإرهاب الصهيونية ضد العرب، وأوضح فيه أن إهلاك نفس من غير اليهود لا يعتبر جريمة قتل، وقال: (الواقع أن خلاصة تعاليم موسى بن ميمون تؤكد أن اليهودي الذي يقتل أجنبياً لا تسري عليه شرائع النفوس، ولا تنطبق عليه وصية لا تقتل، حيث جاء في نصوص ابن ميمون المتعلقة بالقاتل اليهودي الذي قتل أجنبياً مواطناً لا يعاقب بالموت).

لقد استند منظرو العقيدة اليهودية المعاصرون على نصوص توراتية تلمودية وردت في سفر يشوع وكذلك في سفر التثنية ونصوص التلمود التي فسرها الربانيون اليهود. وقد أدى هذا إلى تراجع الأصوات الحاخامية الإصلاحية أمام المتطرفين. كون الأخيرين يتمسكون بنصوص توراتية تلمودية مقدسة حسب رأيهم ولا يحق لأحد أن ينتقدها.

وقد علق على ظاهرة التطرف الدموي لدى منظري اليهودية المعاصرين القاضي حاييم كوهين، قاضي المحكمة العليا، وذلك في محاضرة ألقاها في المؤتمر اليهودي الأميركي عام 1963م بقوله: (في تصوري أن إحدى مهازل القدر المرة أن النزعة البيولوجية أو العنصرية التي روجت لها النازية،، واتسمت بها قوانين نيرنبيرغ البغيضة قد تنقلب بسبب تقاليد يهودية يُدّعى أنها مقدسة، وتصبح أساساً لتشويه يهودية الإنسان في إسرائيل. أعتقد أن في هذا أحد الإسقاطات المذهلة للدولة).

كيف تجابه الإنسانية قوانين الإبادة الصهيونية مثلما واجهت قوانين الإبادة النازية؟

حينما انتهت الحرب العالمية الثانية، أجمع العالم على محاكمة النازية كنظرية، ومحاكمة النازيين كمجرمي حرب، ولسنا هنا بصدد الحديث عن محاكم نورنبرغ التي حكمت على عدد كبير من النازيين بالموت أو النفي أو السجن الأبدي، فهذه المحاكم يعرفها الجميع ولا تخفى ملابساتها على أحد.

لكن محاكمة النظرية النازية القائمة على العنصرية والتفوق العرقي بدأت من المفكرين والفلاسفة والأدباء الأحرار. ولكنها توقفت عند السياسيين والعسكريين المنتصرين في الحرب. ولم يمض وقت طويل حتى انتعشت في ألمانيا والنمسا وغيرها من البلدان وبتنا نسمع عن النازيين الجدد هنا وهناك، وما يقومون به من أعمال إرهابية ضد بعض الأقليات والجاليات المسلمة في أوروبا ولا سيما الجالية التركية.

وبالمحصلة، فإن انبعاث النظرية النازية من جديد بات واضحاً ومؤكداً، والعالم يشهد ذلك بعيونه.

لكننا حين نطرح التعارف الإنساني - صادقين - كسبيل لتخفيف التوتر في العالم، لابد لنا أن نشير إلى أن الإنسانية كلها بحاجة إلى إزالة القوانين العنصرية المشبوهة، فهي بالدرجة الأولى العقبة الأكبر في طريق التعارف الإنساني والتفاهم البشري.

لقد أعلنت أوروبا قبل أشهر أن إسرائيل تشكل ا لخطر الأول على السلام العالمي وكان الاستفتاء الذي جرى بهذا الشأن قد أقر بوجود 60 بالمئة من الأوروبيين يقتنعون بأن إسرائيل الخطر الأول على الإنسانية.

لكن الشعوب الأوروبية التي لا تملك القرار، بحاجة إلى مزيد من تعميق البحث في أسباب هذا الخطر. فمن الطبيعي أن امتلاك إسرائيل الأسلحة النووية يشكل أحد هذه الأسباب. لكن البحث في مكونات هذا الخطر سيوصل العقل الأوروبي والعالمي بشكل محايد إلى تلك النصوص الدينية التي تقدس القتل والإبادة الجماعية. وعندها سيدرك العقل الغربي أن خطر إسرائيل والحركة الصهيونية يكمن في تلك النصوص التي تحكم العقلية الصهيونية. وتتحكم بنوازع النفس الإرهابية المتطرفة، بل إن الممارسات الدموية وحروب الإبادة التي تشنها إسرائيل ليست إلا تطبيقاً لتلك النصوص الدينية المقدسة لديهم والمبثوثة في التوراة المكتوبة والتلمود.

من الطبيعي أن مواجهة هذه النصوص ورفضها، يتطلب في الأبعاد الدينية رفض كل ما هو مناقض لمفهوم السلام عند المسيح عليه السلام. وعند أتباعه الصادقين. صحيح أن المسيحيين بشكل عام يطلقون اسم الكتاب المقدس على التوراة والإنجيل باعتبار الأول العهد القديم والثاني العهد الجديد. ولكن هذا الدمج يحتاج لمراجعة أخلاقية إنسانية أولاً، فما جاء في الإنجيل يتناقض مع كثير مما جاء في التوراة. إننا لا نجد نصاً إنجيلياً يدعو إلى الإبادة البشرية ولا إلى القتل لمجرد القتل. أو لأن الضحية عدو مفترض افترضه مدونو التوراة في عصر بائس بالنسبة لليهود. ولعل تطور العقل البشري وما وصل إليه من انفتاح بلا حدود يرفض ويستهجن وجود جماعات بشرية ما تزال تتمسك بالحس العنصري ضد الآخرين. وتعتبر أن قتل الآخر هو تنفيذ لرغبة الإله ورغبة رجال الدين الذين يتحكمون بتوجيه النفوس والعقول من اليهود وتوجيهها عنصرياً.

فمحاكمة هذه النصوص تقتضي محاربتها وتعريتها، ومحاكمة من يدعو لها محاكمة أخلاقية إنسانية قانونية. حتى يتخلص العالم، بل حتى تتخلص الإنسانية من عقبة كأداء تقف في وجه التعارف الإنساني، والتفاهم بين الشعوب لأجل مستقبل إنساني محترم.

العولمة
في وجه التعارف الإنساني البنّاء

لعل مفهوم العولمة آخر المفاهيم التي طفت على السطح في العالم كله. وقد فهمها كل إنسان حسب ما تلقاه من ثقافة واطلاع وحسب تأثر مصالحه سلباً وإيجاباً ولا نريد في هذه الصفحات أن نتحاجج ونتناقش مطولاً حول العولمة وآثارها على مجموع البشر.

ولكننا مع فهمنا لما يدور في أذهان المفكرين والباحثين ولما نشروه على صفحات الكتب والدراسات الاستراتيجية وجدنا أنفسنا كعرب ومسلمين أن نبين موقفنا إزاء هذه العولمة، خاصة بعدما انتقدها كبار الباحثين الغربيين بعد دراسة لطبيعتها وآثارها السلبية على المجتمعات.

فقد رأى كل من هانس بيتر مارتين وهارالد شومان أن العولمة اعتداء على الديمقراطية والرفاهية ويريان أنه مع نمو العولمة يزداد تركز الثروة وتتسع الفروق بين البشر والدول اتساعاً لا مثيل له. ويشيران إلى أن 358 مليارديراً في العالم يمتلكون ثروة تضاهي ما يملكه 2.5 مليار من سكان المعمورة وأن هناك 20 بالمئة من دول العالم تستحوذ على 85 بالمئة من الناتج العالمي الإجمالي وعلى 84 بالمئة من التجارة العالمية.

ويعتقد الباحثان أن نموذج الحضارة الذي ابتكره الغرب لم يعد صالحاً لبناء المستقبل، أي لبناء مجتمعات قادرة على النمو والانسجام مع البيئة وتحقيق التوزيع

العادل للثروة والدخل. هـذا باختصـار شـديد الوجـه الاقتصـادي للعولمـة. مزيـد مـن الثراء لفئة ومزيد من الفقر لباقي البشر[1].

وما يهمنا هنا ونحن نطرح التعارف الإنساني أن نبين الوجه الآخـر للعولمـة كمـا يريده الطرف الرأسمالي. فقد رأى الغرب تحديـداً علـى المستوى الثقـافي، أن أوروبـا اليوم تشكل المركز الثقافي الذي يفرض مسـاره علـى بـاقي الثقافـات. ويجعـل العـالم كله يتمثل بمساره ويزداد الاغتراب الثقافي والحضاري عند كل الشعوب باستثناء ثقافة المركز. وفي زحمة الوعي السياسي يتم طي الوعي التاريخي.

ويرى الدكتـور حسـن حنفـي أن العلاقـة بـين الطـرف العربـي والطـرف الغربـي الداعي للعولمة ليست مجرد موضوع بحث علمي بل هي أزمـة وجودية تاريخيـة تعبر عن صراع. ويرى الدكتور حنفي أن مخاطر العولمة على الهوية الثقافية إنما هي مقدمـة لمخـاطر أعظـم علـى الدولـة الوطنيـة والاسـتقلال الوطنـي والإرادة الوطنيـة والثقافـة الوطنية. تعني العولمة مزيـداً مـن تبعيـة الأطـراف للمركـز تجميعـاً لقـوى المركـز وتفتيتـاً لقوى الأطراف بما في ذلك الدولة الوطنية التي قامت بـدور التحـرر الوطنـي وتحديـث المجتمع والتي قاومت شتى أشكال الهيمنة القديمة والجديدة[2].

وحين تطرح العولمة إذابة الدولة الوطنية والقومية فإن ذلك يتطابق مـع سعي الصهاينة لتحطيم الحكومات في كل الأقطار، والاستعاضة عنها بحكومة استبدادية يهودية.

تطـرح العولمـة مقولـة الرأسـمالية الشـمولية التـي تتحكـم بالعـالم غـير آبهـة بالاقتصاديات المحلية للشعوب. وهذا ما تراه واضحاً في الطرح الصهيوني الرأسـمالي حين يقول: (يجب الحصول على احتكار مطلق للصناعة والتجارة ليكون لرأس المـال

(1) فخ العولمة، تأليف هانس بيتر مارتين وهارالد شـومان، ترجمـة عدنـان عبـاس علـي، عـالم المعرفـة، العدد 238 ص13.

(2) حسن حنفي، صادق جلال العظم، ما العولمة، دار الفكر المعاصر، دمشق ط1 1999 ص46.

مجال حر). وهذا ما تسعى لاستكماله اليد الخفية في جميع أنحاء العالم. ومثل هذه الحرية ستمنح التجار قوة سياسية.

قد يستغرب الكثيرون حين نقرأ معاً ما جاء في البروتوكول السادس (سنبدأ سريعاً بتنظيم احتكارات عظيمة. وهي صهاريج للثروة الضخمة لتستغرق خلالها دائماً الثروات الواسعة للأمميين (غير اليهود) إلى حد أنها ستهبط جميعها وتهبط معها الثقة بحكومات يوم تقع الأزمة السياسية).

وحين يطرح منظرو العولمة آليات الهيمنة الاقتصادية، فإن أهم هذه الآليات تحكم الأدمغة الاقتصادية في اتجاهات الاقتصاد العالمي. وتطرح الأفكار الصهيونية في نفس الإطار. فيرد في البروتوكول الثامن: (أننا سنحيط حكومتنا بجيش كامل من الاقتصاديين. وهذا هو السبب في أن علم الاقتصاد هو الموضوع الرئيسي الذي يعلمه اليهود، وسنكون محاطين بألوف من رجال البنوك وأصحاب الصناعات وأصحاب الملايين. إن الواقع أن كل شيء سوف يقرره المال).

أما في المجال النظري التوجيهي فلا يكاد يخفى علينا ما تقوله العولمة من أن العالم في إطار العولمة يصبح قرية صغيرة، يذوب فيها الأفراد، وتذوب فيها القيم والمثل والتراث والتاريخ. وتطرح الصهيونية العالمية فهماً خاصاً للشعارات المعبرة عن القيم والمثل. فالحرية السياسية ليست حقيقة بل فكرة. ويجب أن يعرف الإنسان كيف يسخر هذه الفكرة عندما تكون ضرورية فيتخذها طعماً لجذب العامة إلى صفه إذا كان قد قرر أن ينتزع سلطة منافس له، ثم تقول: (إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء، والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسي بارع).

أما مفهوم الصهيونية العالمية للحق فإنه يرتبط بالقوة، وكلمة الحق فكرة مجردة قائمة على غير أساس. فهي كلمة لا تدل على أكثر من (أعطني ما أريد لتمكنني من أن أبرهن لك بهذا على أني أقوى منك، إن الغاية تبرر الوسيلة، وعلينا ونحن نضع خططنا ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد).

وإذا كانت العولمة تسعى لتجعل الحكومات الوطنية والقومية مهمشة خاضعة لنفوذ قوى كبرى فإن الصهيونية العالمية قد خططت لذلك من قبل، فهي تقول: (إن مبادئنا في مثل قوة وسائلنا التي نعدها لتنفيذها. وسوف ننتصر ونستعبد الحكومات جميعاً تحت حكومتنا العليا لا بهذه الوسائل فحسب بل بصرامة عقائدنا أيضاً).

وعندما نبحث في مخاطر العولمة على الهوية الثقافية فإننا نرى أن العولمة هي مزيد من تبعية الأطراف للمركز الذي أشرنا إليه وتجميع لقوى المركز وتفتيت لقوى الأطراف. وقد جاء في البروتوكول الثالث: (أستطيع اليوم أن أؤكد لكم أننا على مدى خطوات قليلة من هدفنا، ولم تبق إلا مسافة قصيرة كي تتم الأفعى الرمزية (شعار شعبنا) دورتها. وحينما تغلق هذه الدائرة ستكون كل دول أوروبا محصورة فيها بإغلاق لا تكسر).

وجاء في البروتوكول الخامس: (بكل هذه الوسائل سنضغط على المسيحيين حتى يضطروا إلى أن يطلبوا منا أن نحكمهم دولياً، وعندما نصل إلى هذا المقام سنستطيع مباشرة أن نستنزف كل قوى الحكم في جميع أنحاء العالم وأن نشكل حكومة عالمية عليا).

وطبيعة العولمة تنتج تعميم قيم الاستهلاك والمتعة بالحياة كما يقول الدكتور حسن حنفي، ولا تنظر الأمم إلى مشاريع قومية وخطط استراتيجية بعيدة المدى. فذلك من اختصاص المركز وما على الأطراف إلا ركوب القطار الذي يحدد المركز اتجاهه وسرعته ونوع حمولته وقائده ووقوده ومحطاته التي يتوقف فيها والتي يتجاوزها. فإذا ما اتسعت المسافة بين الأغنياء والفقراء انتشرت الجرائم المنظمة والحماية الشخصية واسترداد الحقوق أو نهبها باليد وتطبيق الشريعة بالعنف والإكراه والإجبار ما دام العنف أصبح وسيلة لتحقيق المطالب. ويزداد الغلاء والترف وتضييع القيم العامة وينتهي ما يربط الناس ويزداد التفكك الأسري والتشرذم الاجتماعي[1].

---

(1) د. حسن حنفي، جلال العظم، ما العولمة، ص48، سبق ذكره.

بينما تقول الصهيونية العالمية : (إن صيحتنا الحرية والمساواة والإخاء قد جلبت إلى صفوفنا فرقاً كاملة من زوايا العالم الأربع عن طريق وكلائنا المغفلين. وقد حملت هذه الفرق ألويتنا في نشوة بينما كانت هذه الكلمات مثل الديدان تلتهم سعادة الآخرين وتحطم سلامهم واستقرارهم ووحدتهم مدمرة بذلك أسس الدول).

وتقول كما جاء في البروتوكول الأول : (إن العنف الحقود وحده، هو العامل الرئيسي في قوة العدالة، فيجب أن نتمسك بخطة العنف والخديعة لا من أجل المصلحة فحسب، بل من أجل الواجب والنصر، نحن نحكم الناس باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء التي يؤججها الضيق والفقر، وهذه المشاعر هي وسائلنا التي نكتسح بها كل من يصدوننا عن سبيلنا. إن البغضاء ستصير أشد مضاءً حين تكون الأزمات الاقتصادية مستحكمة لأنها ستوقف الأسواق والإنتاج وسنخلق أزمة اقتصادية عالمية بكل الوسائل الممكنة التي في قبضتنا.

إن كلمة الحرية تزج بالمجتمع في نزاع مع كل القوى حتى قوة الطبيعة وقوة الله. وذلك هو السبب في أنه يجب علينا أن نستحوذ على السلطة، أن نمحق كلمة الحرية من معجم الإنسانية باعتبار أنها رمز القوة الوحشية الذي يمسخ الشعب حيوانات متعطشة للدماء. ولكن يجب أن نركز في عقولنا أن هذه الحيوانات تستغرق في النوم حينما تشبع.

إننا حين نطرح مبدأ التعارف الإنساني لابد لنا أن نوضح من خلال الحوار الإنساني البنّاء مخاطر جميع الأفكار وآلياتها الداعية إلى تصنيف البشر إلى صنفين، أغنياء وفقراء، وإلى تميز الثقافات بحيث تستعلي ثقافة على ثقافة آخرين وتريد طحنها، وهذا يعارض أبسط قواعد التعارف الإنساني الذي نسعى له ونهدف إلى تحقيقه.

هل تبقى اللاسامية
سيفاً مسلطاً على التقارب بين الشعوب؟

بين الفترة والأخرى تتعالى أصوات أقطاب الصهيونية العالمية شاكية من تنامي ظاهرة تسمى اللاسامية. ولعل آخر ما صدر عن هذه الأصوات ما ترافق مع هجرة مائتين وخمسين من يهود فرنسا إلى فلسطين. فقد راح رئيس وزراء إسرائيل يندد بتنامي ظاهرة اللاسامية في فرنسا والعداء ضد اليهود. ثم ما لبث أن تراجع عن هجومه عندما ظهر زعماء اليهود الفرنسيين يندون بتصريحاته ويدحضون مزاعمه.

لكن المسألة لا تتوقف هنا، فأي تقارب أو حوار بين الغرب والمسلمين يراه زعماء الصهيونية تحالفاً ضد اليهود. فيأخذون بكل وسائل الإعلام ويجيرونها لبلبلة التفاهم والحوار والتواصل بين شعوب أوروبا والعالمين العربي والإسلامي، وبسبب من ضغوط الجماعات اليهودية في أوروبا وأميركا تضطر دول هاتين القارتين لوضع العلاقات مع إسرائيل على طاولة المباحثات والتشاورات والعلاقات التجارية الاقتصادية بينها وبين العرب. ولعل أكثر ما يثار دوماً تحسين العلاقات مع هذا الكيان الغاصب لئلا يُتهم العرب والمسلمون باللاسامية ومعاداة اليهود.

فإذا أردنا أن نفتح عالم التعارف مع الشعوب وخاصة الشعوب الأوروبية لابد لنا أن نقنع الغرب والأطراف الأخرى بأن موضوع اللاسامية ليس له علاقة بحوارنا وتعارفنا. وعلينا أن نقنعهم باستبعاد هذه الفكرة الباطلة عن أوراق تعارفنا. وفي سبيل ذلك كان لابد لنا من توضيح وجهة نظرنا باللاسامية حتى يفهمها الغرب أو يفهمها الطرف الآخر الذي نسعى للتعارف معه والحوار بينه وبيننا. فـ(الهولوكوست) ـ المحرقة

اليهودية مزاعم الحركة الصهيونية والتي زُعم أن الألمان نفذوها بحق اليهود - سبقتها محرقة أكبر خداعاً وأضخم تزويراً، خدعة اللاسامية، وكذبة لم يشهد تاريخ الأمم كذبة أكبر منها. لقد بدأت بأقصى ما تملك الصهيونية من وسائل التلفيق والابتزاز، فلم تكن عفوية البروز أو الاستغلال. إنما هي فكرة تلفيقية ابتدعتها الصهيونية منذ نشأتها الأولى. وما إن حاولت الشعوب التخلص من خدعة الهولوكوست حتى راحت قيادة الحركة الصهيونية تنشر فكرة اللاسامية. وتحيطها بكل الصفات السيئة والعنصرية ومعاداة اليهود واندمجت الفكرتان اللاسامية والمحرقة وراحت الصهيونية تبتز الأمم وتسرق منها المليارات من الماركات الألمانية والدولارات وما شابهها.

لكن الخدعة مهما طال تلفيقها لابد لها من وقت تنفضح فيه، وتدرك الشعوب أنها عاشت على كذبة لا أساس لها في التاريخ ولا أساس لها في الحقيقة. بل هي أشد وطأة من كذبة المحرقة التي راح ضحيتها وضحية خدعتها مفكرون ورجال دين وزعماء وباحثون رفضوا أن تظل عقولهم مخدوعة مسلوبة، مهددة من قبل الأفعى الصهيونية القاتلة.

من أين جاءت فكرة اللاسامية؟

هل يعرف الغرب من أين جاءت فكرة اللاسامية؟ وهل يعرف ماذا تعني؟ وهل يدرك أن شعوباً كثيرة يحسبونها على سام بن نوح؟ وأن اليهود ليسوا وحدهم من يزعمون أنهم ساميون.

منذ البدء علينا أن نعود للتاريخ قليلاً، نعود للمصطلح، لبدء استغلال لمصادره لمروّجيه.

فحتى عام 1740 مسيحي لم يتفق العلماء والمؤرخون على تحديد سمات الشعوب وأصولها. وقد كانت هناك نظريات متناقضة لا يستطيع المرء تصديقها أو تكذيبها. وفي هذا الإطار يظهر العالم اليهودي النمساوي شلوتزر ليقول إن اليهود

ينتسبون إلى سام بن نوح وكذلك بعض الشعوب الأخرى التي سكنت منطقة الوطن العربي وخاصة القسم الآسيوي منها بما فيهم العرب والسريان والآراميون والكلدانيون والكنعانيون.

لكن شلوتزر لم يجد ما يدعم رأيه من مصادر علم الآثار ومدونات التاريخ. وكان مصدره الوحيد كتاب التوراة المحرفة التي جاءت على ذكر نوح وأولاده سام وحام ويافث في سفر التكوين تحديداً. ومن خلال قصة نوح وأولاده التوراتيين ابتدع تصنيف الشعوب إلى ساميين وحاميين وغير ذلك.

لكن المؤرخ آرثر كوستلر فند هذا الزعم وطرح نظرية أخرى تقول إن يهود أوروبا شرقيها وغربيها هم آريون من عرق الخزر ولا يمتون بصلة إلى المنطقة العربية. وقد طرح ذلك في كتابه المهم يهود الخزر القبيلة الثالثة عشرة. لكن الصهيونية بنت على نظرية شلوتزر نظريتها العنصرية التي تقول إن ساماً هو أرقى أولاد نوح وأن اليهود هم صفوة نسله.

وتجاوبت هذه النظرية كل التجاوب مع ما طرحه التلمود الذي يُجمع كافة الباحثين أنه كتاب لا يمت بصلة إلى عقيدة النبي موسى عليه السلام. إنما هو كتاب مكرس لشتم المسيح عليه السلام والاستعلاء على بقية الشعوب والأمم الذين يسمونهم حسب المفهوم الصهيوني الديني (غوييم).

ومنذ انتشار يهود إسبانيا ومتهودي الخزر في أوروبا الشرقية والغربية، انعزل اليهود في غيتوات (حارات مغلقة) ليحصروا أنفسهم دون الاندماج بغيرهم من الشعوب الأوروبية. ولعبوا دور المرابين وممولّي النبلاء والملوك بالمال ليحققوا غاياتهم في حروب صليبية ضد الشرق وحروب داخلية في أوروبا.

ويشهد القرن الثامن عشر نقمة أوروبية على اليهود، لأنهم رفضوا الاندماج، وظلوا يعتبرون أنفسهم فوق الشعوب. وقد شهدت روسيا القيصرية بالدرجة الأولى

وبقية دول أوروبا بالدرجة الثانية، تحركات رسمية وشعبية ضد اليهود الموجودين فيها وحتى تلك اللحظة لم يكن مفهوم اللاسامية بارزاً بقدر ما كان مفهوم معاداة المرابين والمغلقين من اليهود.

ويشكل ظهور الدعوة الصهيونية السياسية على يد هرتزل، العلامة الفارقة في ظهور هذا المصطلح، واستخدامه. وبدءاً من عام 1897م، أي العام الذي انعقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول أصبح مفهوم اللاسامية، الأول الذي يُروج له في الأوساط الأوروبية وحتى نذكر الشعوب الأوروبية بأن عليها أن تتحرر من كابوس اللاسامية وتنطلق باتجاه التعارف الإنساني الحر كان علينا أن نبين كيف تم استغلال هذا المفهوم.

فعلى الرغم من وجود الدراسات الأكاديمية التاريخية التي اهتمت بالشعوب وأصولها، إلا أن الشعوب الأوروبية ظلت على جهل كبير بالمنطقة العربية وأصول سكانها. وعندما طرحت الحركة الصهيونية مفهوم اللاسامية كانت تدرك تماماً أن الشعوب الأوروبية لم تفهم السامية على أنها صفة لمجموعة شعوب سكنت المنطقة العربية. بل سوف تفهمها على أنها تعني اليهود فقط. لأنهم المعنيون بالسامية أكثر من غيرهم.

ولما كان الكتاب المقدس أي التوراة والإنجيل المرجع الديني لشعوب أوروبا بعد أن استطاع البروتستانت دمجهما في كتاب واحد، فقد اندمج مفهوم السامية مع ما جاء في العهد القديم من حديث عن أولاد نوح وعلى رأسهم سام. فكل عداء لليهود يعني عداء لسام. وبالتالي هو عداء لمجموعة بشرية لها حقوقها مثل بقية الشعوب في العيش دون نظرة معادية لها.

وقد أدرك هرتزل أن من بين أهم العوامل التي تدفع باتجاه استعمار فلسطين عامل معاداة اليهود في أوروبا، فعليه يمكن أن يطالب بأن يعمل المجتمع الأوروبي لصنع دولة تجمع اليهود بعيداً عن الاضطهاد الذي زعم هرتزل وحركته أنه يقع على اليهود، لا لسبب إلا لكونهم من عرق سامي مغاير لعروق الشعوب الأوروبية.

ولا شك أن ظهور الحزب النازي في ألمانيا بزعامة هتلر في أواسط ثلاثينات القرن الماضي، ونظريته القائمة على أفضلية العرق الآري، دفع الحركة الصهيونية لاستغلال ذلك إلى أبعد حد. فتحالف قادة سياسيون ومفكرون صهاينة مع النازية الألمانية لدفع يهود أوروبا للهجرة إلى فلسطين. وقد وصل هذا الدفع حدّ ارتكاب بعض أعمال القتل لبعض اليهود. واستطاعت الحركة الصهيونية أن تشيع وبشكل كبير مفهوم معاداة السامية. وتروّجه بين يهود أوروبا لتدفعهم قسراً للجوء إلى الحركة الصهيونية والوكالة اليهودية كي تهجرهم إلى فلسطين. وما إن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى استطاعت الحركة الصهيونية جني ثمار هذه الخدعة الكبرى. فأصبح عدد اليهود في فلسطين ستمائة ألف استطاعت الوكالة اليهودية جلبهم إلى فلسطين عن طريق الهجرة القسرية والإغراءات الكبيرة.

وقد ساعد على تبني فكرة اللاسامية كون الشعوب الغربية اكتوت بنار الحرب الكونية التي راح ضحيتها أكثر من أربعين مليون شخص. فكل ما تبثه الحركة الصهيونية وأجهزتها أصبح مسلّماً به. كالمحرقة، واللاسامية، وما إلى ذلك من تلفيقات كثيرة.

وأفادت الصهيونية من رفع هذا الشعار، التحالفات التي تمت بين الصهيونية اليهودية والصهيونية البروتستانتية التي تحكمت ببريطانيا وأميركا وعدد من دول أوروبا ومنذ ذلك الوقت. وحتى هذه اللحظات يؤجج زعماء الصهيونية في العالم نار اللاسامية وخاصة عندما تُنتقد السياسة الإسرائيلية وإجراءاتها الوحشية ضد الشعب العربي في فلسطين.

كيف واجهت الصهيونية منتقديها؟

مما لاشك فيه أن خدعة اللاسامية لم تنطلِ على الكثيرين من الباحثين والمتخصصين في الدراسات التاريخية والإنسانية بشكل عام. ومن هؤلاء من تخصص بدراسة الظاهرة الصهيونية.

ولعل من أهم المنتقدين لهذه الحركة الباحثين السوفيات الذين سبقوا غيرهم في فضح الصهيونية والماسونية العالمية. لكن الحركة الصهيونية التي شكلت في روسيا أولاً مجموعات سرية لمقاومة المعادين لها راحت تقوم بأعمال إجرامية لإسكات الأصوات المناوئة لها.

وكان على رأس من اغتالتهم الحركة الباحث السوفياتي فاليري إميليانوف صاحب كتاب (استئصال الماسونية والصهيونية) وقد تم اغتياله بدفعه من الطابق الرابع في بناية في موسكو. وروجت الأوساط الصهيونية آنذاك أنه انتحر بعد أن أصابه الجنون.

وزيادة على ذلك، فقد استطاعت المجموعات السرية الصهيونية أن تخترق أجهزة الاستخبارات الروسية فتشتت عائلة هذا الباحث في أنحاء روسيا.

وقد أطلقت الأوساط الصهيونية حملة شرسة على المفكر الفرنسي المسلم رجاء غارودي ووصفته باللاسامية، لأنه كذّب المحرقة ورفضها. ورفض خرافة شعب الله المختار وقد دفع اللوبي اليهودي في فرنسا الحكومة الفرنسية لمحاكمة غارودي وصديقه الأب بيير. وتغريمه بمبلغ سبعين ألف فرنك فرنسي وسجنه مع وقف التنفيذ لمدة سنتين.

ولابد أن نشير هنا إلى أن كل باحث أو مفكر يتناول بالنقد والفضح الحركات المشبوهة المرتبطة بالصهيونية يكون مصيره القتل أو الملاحقة أو التشهير. وتلك الحركات المشبوهة لا تخرج عن الماسونية والروتاري والليونز والبوند وبناي بريث وعبدة الشيطان إلى آخر ما هنالك من بدع صهيونية مشبوهة. وفي كل حادثة اغتيال يقوم الإعلام الصهيوني بحملة إعلامية واسعة في أمريكا وأوروبا تشير إلى أن الذي تم اغتياله من دعاة اللاسامية وأنه يكره اليهود.

وأخيراً، جاء الاستطلاع الأوروبي الذي أقر بأن إسرائيل هي الخطر الأول على العالم ليحرك قادة إسرائيل والصهيونية العالمية باتجاه شن أكبر حملة حاقدة

على الشعوب الأوروبية التي صوتت للحقيقة . وقد نعتوها باللاسامية ومعاداة اليهود .

ومما لاشك فيه أن الاستطلاع الأوروبي لا يقتصر على تقدير لا سامية المزاج الأوروبي وإنما يميل مباشرة إلى طرح السؤال حول دور إسرائيل الذي يهدد السلام العالمي ، لقد ساهمت حكومات إسرائيل في تنشيط اللاسامية فزادت بذلك المخاطر المادية والمعنوية التي تتربص بالمجتمعات اليهودية في كافة أنحاء العالم .

لقد كانت اللاسامية ملازمة للحداثة الغربية ، ولن تُستأصل جذور اللاسامية من الحداثة طالما ظل نموذج الدولة ـ الأمة ـ هو سيد الموقف في العالم . والمفارقة تكمن في أن تبني ما يسمى الأمة اليهودية لنموذج الدولة الأمة إنما يعني إسهاماً في إعادة إنتاج اللاسامية .

لقد رأى هرتزل أن اليهود يعيشون في كل مكان كأقلية . والأقلية تستقطب إليها الكراهية من قبل الأكثرية ، إلا أنه عندما يتكتل اليهود في أرض الآباء والأجداد سيكونون هناك بمثابة أغلبية وستختفي اللاسامية من العالم .

لكن رؤية هرتزل سقطت وانكشف خداعها ، فهي تلفظ أنفاسها الأخيرة . فما يحدث هو العكس تماماً ، فإسرائيل هي تتسبب بالإحساس باللاسامية في جميع أنحاء العالم .

يقول الكاتب اليهودي يوري أفنيري : (حكومة شارون هي مختبر هائل لتربية جرثومة اللاسامية . إنها تصدرها إلى كافة أنحاء العالم . فالمنظمات اللاسامية التي عاشت على مر عشرات السنين بالقوة على هامش المجتمع منبوذة يُسخر منها . بدأت تعلو وتزدهر فجأة في الكثير من بلدان العالم . واللاسامية التي دفنت رأسها في التراب خجلاً من الحرب العالمية الثانية ، تركب الآن موجة كبيرة من معارضة أعمال التنكيل التي تقوم بها إسرائيل ويصب دعائيو شارون الزيت على النار حين يدّعون بأن كل من يوجه اللوم لشارون هو لا سامي .

إنهم يلصقون هذه الوصمة على جبين مجموعة كبيرة من الجمهور، وهذا يعني أنه ليس فقط أن إسرائيل لا تحمي اليهود من اللاسامية بل على العكس، إسرائيل تنتج وتصدر اللاسامية التي تهدد المجتمع اليوم)[1].

ويكتب أفنيري عن أساليب الصهاينة في تصفية منتقدي سياسة شارون الوحشية فيقول: (في كل عدة سنوات تقرر الجالية اليهودية في أمريكا القضاء على سياسي لا يؤازر إسرائيل مؤازرة تامة. وتنفذ بحقه تصفية موجهة ليس في الخفاء، ومن وراء الكواليس إنما على شكل إعدام. وهذا ما حدث الآن لإحدى عضوات الكونغرس تُدعى سينتيا مكيني، وهي امرأة شابة نشيطة وذكية ولطيفة جداً. لقد تجرأت على توجيه اللوم لحكومة شارون ودعم الفلسطينيين. ودعم منظمات السلام الإسرائيلية وقد وجدت المؤسسة اليهودية مرشحة معارضة سوداء غير معروفة. ووجهت أموالاً طائلة لهذه المعركة وسحقت بذلك سينتيا مكيني)[2].

حدث كل هذا علانية على الملأ ويقرع الطبول والزمور عبرة لمن اعتبر ولكي يعرف كل سيناتور أو عضو كونغرس أن توجيه اللوم لشارون هو عمل انتحاري. ويوجد في إسرائيل من يأمل في قرارة نفسه أن تُبعث اللاسامية من جديد في كافة أنحاء العالم خارج دولة إسرائيل لأنه يجب على اللاسامية أن تزداد في جميع أنحاء العالم.

حتى لا يفوتنا الجواب الذي ينتظره أبناء الشعوب الأوروبية نورد ملاحظتنا في سؤال

من هم الساميون؟

يفترض شلوتزر العالم النمساوي اليهودي أن العرب واليهود والسريان وغيرهم ينتسبون إلى سام والسامية. مع أن كل الدراسات التاريخية الجادة ترى أن لفظة سامية

---

(1) يوري أفنيري، مقال في صحيفة إسرائيلية شهر 5/ 2004.

(2) يوري أفنيري، مقال في صحيفة إسرائيلية شهر 5/ 2004.

كمصطلح يطلق على العرب، هو مفهوم غامض لا تؤيده الدراسات التاريخية والآثاريه. والأفضل أن يطلق على شعوب المنطقة الشعوب العربية أو الشعب العربي.

فإذا كانت النظرية الأولى تقول: إن العرب واليهود من عرق واحد هو العرق السامي، فكيف إذاً يطلقون اسم اللاسامي على كل من يعادي الحركة الصهيونية أو اليهود بشكل عام؟ فإطلاق لاسامي يعني أن المعاداة تلحق بالعرب قبل غيرهم كونهم الأكثر عدداً أو وجوداً في المنطقة.

لكن، وللحقيقة، نجد أن الصهيونية تطلق على كل من يعاديها مصطلح لاسامي حتى لو كان عربياً سامياً أو كان يهودياً غير صهيوني. وهذا يدل على أن المسألة برمتها تلفيقة كبرى، أرادوا منها إظهار المعادين لجرائم القتل الصهيونية والاغتصاب بأنهم متعصبون معادون لليهود المضطهدين. ولن نخوض هنا في نظريات العروق والأجناس البشرية إلا أننا نذكّر فقط أن في إسرائيل اليوم أكثر من ثمانين عرقاً وجنساً. من الأبيض ذي العينين الزرقاوين إلى الزنجي الذي جُلب من أثيوبيا وما بينهما الأوكراني والبولوني والإيراني والكردي والهندي. إلخ..

فهل كانت هذه الأجناس البشرية سامية تنتسب إلى سام بن نوح؟ أم أن المشروع الصهيوني استغل اليهودية كعقيدة ليدمج بين الدين والقومية؟

فإذا كانت اللاسامية تعني معاداة العرق السامي، فإن الاضطهاد العنصري الذي تمارسه قوات الاحتلال الإسرائيلي بحق الفلسطينيين العرب يعتبر من أبشع أنواع اللاسامية التي أشاعتها الصهيونية نفسها. فكيف يسكت الغرب عن عنصرية إسرائيل ضد الساميين العرب الأصليين، بينما يدافع عن اليهود في العالم لمجرد سماع تصريح يفضح زيفهم وخطرهم على الشعوب؟؟

وعلى ضوء ذلك كله يبدو شعار اللاسامية خدعة أو بدعة، انتحلتها الحركة الصهيونية وصدقها الغرب أو حاول أن يقنع نفسه بأنها حقيقة أو خدعة إلى أن جاءت

الصحوة الأخيرة في دول الاتحاد الأوروبي وتكشف أن إسرائيل الخطر الأول الذي يهدد السلام العالمي.

فضيحة اللاسامية تكبر كما كبرت فضيحة أسطورة المحرقة الهولوكوست. ولكن يبدو أن بعض الغربيين ما زالوا يصرون على عدم فهم طبيعة هذه الخدعة. والمهم أن على العالم أن يعي أن التحالف بين الصهيونية وبعض القوى العالمية هو تحالف نسيج واحد ففي التوجه والأهداف والغايات. وما مفهوم اللاسامية سوى ذريعة صلحت إبان الحرب العالمية الثانية. ولم تعد تصلح الآن، لأن الانتباه لأساليب إسرائيل الإعلامية التضليلية وغسل العقول يدفع باتجاه التحليل المنطقي وعدم القبول بالأمور قبولاً غبياً. لقد أدرك كثيرون من أفراد الصهيونية العالمية أن خدعتهم باتت مكشوفة. وعليهم تغيير أدواتهم القديمة في الإعلام وأساليب الضغط. وقد دلّ على تحركهم عقد المؤتمر الصهيوني العالمي بتاريخ 13/ 11/ 2003 مسيحي.

فبعد أن انتهى الاجتماع أو المؤتمر اجتمع الأشخاص الذين ينتمون إلى النوردوم الإسرائيلي لمحاربة اللاسامية في مكتب وزير شؤون القدس والشتات في الحكومة الإسرائيلية المدعو شيرانسكي حيث بحثوا في تنامي ما يسمى باللاسامية في العالم.

وقد خلص الاجتماع إلى تصنيف اللاسامية على ثلاثة أوجه. الأول اللاسامية التقليدية، والثاني اللاسامية الجديدة، والثالث اللاسامية الإسلامية.

وفي اللاسامية الجديدة، اعتبروا أن انتقاد شارون وحكومته وجرائمهما موصوم باللاسامية. وفق التعريف الجديد. وبمعنى آخر فإن إسرائيل والحركة الصهيونية تضع تماثلاً متطابقاً بين سياسة حكومة شارون وبين اليهود في أوروبا.

ويبدو أن الحركة الصهيونية مصرة على تطوير دور الضحية الافتراضية لليهود. وفي بحثها في اللاسامية الإسلامية، يتضح استغلالها للموقف الأمريكي تجاه محاربة الإرهاب وبذلك يحاول الصهاينة خلق تداخل لقواسم مشتركة بين اللاسامية

الإسلامية والإرهاب الإسلامي على حد قولهم. وقد حث المؤتمرون اليهود في كل أنحاء العالم على مواجهة المسلمين كلهم، الأمر الذي يحمل بذوراً خطيرة تتجاوز أبعاد التناحر السياسي المعاصر لتدخل في عمق تأسيس صراع حضاري ديني تغذيه الحركة الصهيونية بدوافعها العنصرية.

وفي المحصلة، فإن إطلاق خدعة اللاسامية على أي انتقاد لجرائم إسرائيل الرسمية هو شكل من أشكال الإرهاب السياسي الإعلامي والمعنوي خاصة عندما يجري تبني هذا الافتراء في أروقة البيت الأبيض في واشنطن.

إذاً ومن موقع إسلامي يفتح باب التعارف على ما نراه نطرح أمام العقل الأوروبي وكل شعوب العالم الراغبة في الحوار والتواصل إحدى أكبر المعوقات المقصودة التي تخترعها الصهيونية العالمية لتكون شعوب العالم في حالة اضطراب نفسي وفكري وفي حالة تأهب للتصادم بين بعضها بعضاً.

الفصل الرابع:

آليات التعارف المعاصرة

مما لا شك فيه أننا بعد أن وضّحنا طبيعة التعارف الإنساني الذي ندعو إليه، وبعد أن بيّنا طريقة العودة لتقييم المفاهيم الكبرى التي تسود العقل البشري. نصل إلى العمل الآلي التنفيذي وطرقه حتى لا نبقى مأسورين للإطار النظري. فآليات التعارف كثيرة، تبدأ بكسر كل الحواجز وطرح الحوار والتعارف للمناقشة والتعرف على الآخرين وذلك من خلال المؤتمرات والندوات والتبادل المعرفي الثقافي والديني والعلمي وغيرها. ولعل أهم ما في ذلك أن اللقاء والحوار المباشر وحتى غير المباشر يدفع الأطراف المتحاورة لطرح مواضيع شتى تكون دافعة للاختيار أهم التقاطعات الإيجابية لتكون محور الحوار أو اللقاء.

وما من شك أن آليات التعارف نفسها تدفع للتعرف على الأفكار والفلسفات، والعقائد والمذاهب الدينية، والعادات والتقاليد. ومن ثم البحث عن وسائل منطقية لنشر المفاهيم الصحيحة وإذابة المفاهيم الخاطئة.

ومن جانبنا كمسلمين لا بد لنا أن نوضح موقفنا الإسلامي من كل هذه القضايا ونوضح إيجابياتها وسلبياتها. ومن الطبيعي أن الطرف الآخر يمتلك أيضاً الحق في طرح هذه القضايا ليتعرف أكثر فأكثر في أفكارنا وفلسفاتنا وعقيدتنا ومذاهبنا وعاداتنا وتقاليدنا، ومن ثم يبحث عن وسائل منطقية للوصول إلى نشر المفاهيم الصحيحة وإزالة المفاهيم الخاطئة.

ولا شك أن آلية الحوار تفرض على الطرفين جدولاً بالمواضيع الهامة التي تشغل بال البشرية ولا تجد لها حلاً. وما أكثر المواضيع المعاصرة التي تحتاج لحوار ومن ثم تحتاج لإيجاد حلول ناجحة لها.

ومن الطبيعي أن كل متحاور يرى من منظوره الخاص أهمية بعض المواضيع وأولوياتها فتقديم بعضها وتأخير بعضها الآخر يعود إلى مدى حساسية كل موضوع وتأثيره الأكثر على المتحاورين.

فآلية التحاور تفترض الاتفاق الدولي على أي الموضوعات يتم التوافق، بحيث يجد الجميع القاسم المشترك الذي يفتح أمام المتحاورين أفق التحاور منذ بدايته.

ولعل هذا ما يطرح العناوين الأساسية المتفق عليها حتى لا يلجأ كل طرف إلى اختراع المواضيع الأكثر أهمية بنظره. فكل عنوان يشكل مادة للحوار. فالديمقراطية عنوان ودور الدين في سلوك المجتمعات عنوان. المرأة عنوان. وكذلك الإباحية وتجارة الرقيق عنوان. التخلف العلمي عنوان وكذلك المرض والجهل والفقر. الجاليات الإسلامية عنوان. هذا إذا اقتصر الحوار على مثل هذه المواضيع. أما إذا أراد المتحاورون التوسع فلا شك أن هناك مواضيع في العقيدة تحتاج للتوضيح والوصول إلى أقرب نقطة التقاء مع العلم أن الخطوط العامة للعقائد تفترض اتفاقاً مبدئياً. حول الله الواحد الأحد وحول رسالة الأنبياء. وعلاقة كل إنسان بأخلاقيات العقيدة الاجتماعية والفكرية والنفسية.

فتحديد موضوعات الحوار والاتفاق على الأهم منها يحدد وضوح أسباب الحوار والتعارف بين بني البشر، ولا شك أن ذلك يستبعد الإملاءات وفرض الآراء وترجيح موضوعات على أخرى.

لقد طرحت بعض المؤتمرات العالمية كمؤتمر بكين للمرأة قبل عشر سنوات ومؤتمرات التنمية السكانية. وكذلك مؤتمرات حوار الأديان، قضايا كثيرة. وتباينت أفكار الشعوب بل وتضاربت في بعض الأحيان. ومن الطبيعي أن تتباين الهموم والأولويات. فما يراه الشعب الفرنسي مثلاً هو غير ما يراه الشعب التركي أو الصومالي. وما يعاني منه المجتمع الروسي هو غير ما يعانيه المجتمع الباكستاني أو الإندونيسي. ومن الممكن أن نجد كل شعب من شعوب العالم يقدم موضوعاً أو مشكلة يعاني منها على موضوع أو مشكلة قد يعاني منها شعب آخر.

إذاً فالتعارف بمفهومه الواسع يتطلب أولاً الاتفاق على مبادئ الحوار وموضوعاته. فما هي هذه الموضوعات التي تصلح للحوار في ظروفنا الحالية؟ هل

هي موضوعات في العقائد أم هي موضوعات القضايا الاجتماعية. كالإجهاض وزواج المثلين والأطفال غير الشرعيين والإباحية، أم هي موضوعات القضايا السياسية المستعصية. كسباق التسلح والعلاقات السياسية بين الغرب والشرق والديمقراطية، وما يسمى الشرق الأوسط الكبير؟

ما هي الموضوعات الملحة التي تحتاج لنقاش وحوار حتى تجد طريقها إلى حل إنساني مقبول لدى جميع المتحاورين؟

ولا شك أن هذا يجرنا للحديث عن طبيعة المتحاورين، فهل الحوار يقتصر على رجال الدين والمفكرين. أم أنه يشمل الحوار مع القوى السياسية الحاكمة في العالمين العربي والغربي؟ على أية حال فإن طرحنا لمفهوم التعارف من بابه الواسع قد يوسّع النقاش إلى حدّ يضيع فيه الهدف. ولذلك نرى أن آلية التعارف لا تحتاج كثيراً في الوقت الحالي للتفتيش عن موضوعات الحوار. فيكفي أن يبدأ التعارف على المستوى التطبيقي حتى يتعرف المتحاورون على عقلية بعضهم. على تفكيرهم. على آفاق تساؤلاتهم. على فلسفتهم الحياتية ونظرتهم للمستقبل الإنساني وعلى نظرتهم للآخر.

كيف نتعرف على العقيدة المسيحية كما يراها الغرب؟

كيف يتعرف الغرب على الدين الإسلامي؟

لعل هذا السؤال المزدوج يفتح الطريق عملياً لحوار مع الغرب. فنحن لابد أننا مشغولون بهذا السؤال وعلى الأخص في شقه الأول. والغرب مشغول أيضاً بهذا السؤال خاصة في جزئه الثاني.

كل منا يريد أن يعرف حقيقة الصلة بين البشر وبين عقيدتهم وحقيقة الصلة بين هؤلاء وعقائد غيرهم من البشر.

وإذا ضيقنا السؤال أكثر فأكثر فإننا نفترض ما يلي:

سؤال 1 : كيف تنظرون إلى الإسلام، وإلى نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم. إلى التاريخ الإسلامي؟ كيف تنظرون إلى القرآن الكريم؟ كيف تنظرون إلى علاقة الإسلام بما يسمى الإرهاب؟

سؤال 2 : السؤال موجه للمسلمين، وهو كيف تنظرون إلى الغرب؟ كيف تنظرون إلى علاقة الشعوب الأوروبية بالعقيدة النصرانية؟ كيف تنظرون إلى السيد المسيح بن مريم؟ كيف تنظرون إلى الإنجيل؟ كيف تنظرون إلى العلاقة بين الغرب والاستعمار أو الإرهاب؟

سؤال 3 : كيف تنظرون إلى التراث الإسلامي، الفلسفة والأفكار، الآداب والفنون، العادات والتقاليد العربية والإسلامية، الحضارة الإسلامية، نظام الحكم كما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية؟

سؤال 4 : كيف ينظر المسلمون إلى التراث الغربي، الفلسفة والأفكار الغربية، الآداب والفنون والعادات والتقاليد الغربية، الحضارة الغربية، نظام الحكم حسب تسلسله التاريخي في الغرب؟

سؤال 5 : كيف تنظرون إلى الوحدة العربية والإسلامية، هل قيامها يسعدكم أم يغيظكم؟ وهل أنتم سعداء لهذا الواقع العربي الممزق أم أنكم تودون لو اجتمع شمل العرب والمسلمين وتكسرت الحدود وأصبحت هذه الدول العربية دولة واحدة ذات علم واحد؟

سؤال 6 : كيف ينظر المسلمون إلى وحدة الدول الغربية، هل هذا الاتحاد الأوروبي يؤثر على الأمة العربية الإسلامية سلباً أم إيجاباً؟

سؤال 7 : هل يسمح الغرب بانتشار الإسلام في بلاده وما هي الرؤية الغربية لذلك؟

سؤال 8 : هل يسمح المسلمون بتبني أفكار الغرب وانتشارها في الأوساط العربية المسلمة؟

سؤال 9: ما هو موقفكم من نشر المسيحية في أوساط بلاد المسلمين؟

سؤال 10: ما هو موقف المسلمين من حركات التنصير في البلدان الإفريقية والآسيوية وخاصة البلدان المسلمة؟

أسئلة هامة، وقد تكون محرجة في بعض الأحيان، ولكننا ونحن نضع أوراقنا على طاولة الحوار لابد أن يكون حوارنا شفافاً واضحاً. فالأسئلة الهامة يجب أن تخرج إلى الوجود. ونعتقد أن هذه الأسئلة وغيرها الكثير من الأسئلة تجول في نفوس الجميع دون أن تجد جواباً صريحاً وصادقاً.

ومع احترامنا لكل الحوارات التي جرت بين المسلمين والمسيحيين أو بين العرب والغرب، إلا أننا نعتقد أن الأسئلة التي أدرجناها قبل قليل ظلت حبيسة الصدور إلا ما ندر.

ولذلك، فإننا، ومن منطلق الصدق في آلية التعارف، نطرح هذه الأسئلة ليُجاب عليها بكل صدق. ونعتقد أن الغاية المحمودة من التعارف والتحاور تفرض علينا جميعاً أن نتوصل إلى القواسم المشتركة التي تحتاج لجهود مكثفة وعمل دؤوب لا ينقطع.

قد نصل إلى نقاط اختلاف جذرية، وخاصة فيما يتصل بالعقائد. عندها لابد من ترك هذه الأمور ليحلّها الزمن طالما أنها لن تكون سبباً في صدام أو صراع أو قتال ولا نعتقد أن سبباً عقيدياً سيحمل المتحاورين إلى إعلان الحرب على بعضهم. وسفك دمائهم وإزهاق أرواحهم.

وقاعدة الإسلام في هذا الشأن ثابتة راسخة:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: 256).

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: 6).

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 99)

لكن المشكلة تكمن فيما يراه الغرب عن الإسلام. وقد سمعنا قولاً عجيباً من رأس الهرم الكاثوليكي وهو يقول: (هناك مسلمون وليس هناك إسلام).

وسمعنا بعض وجهات النظر التي تقول: (إن الإسلام نحلة نصرانية).

وسمعنا أيضاً من يقول: (إن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم استقى دينه من ورقة بن نوفل أو الراهب بحيرى).

وعن القرآن سمعنا من قال: (إنه نسخة مهذبة عن التوراة).

فهذه النظرة للإسلام ونبي الإسلام والقرآن الكريم تنفي وجود دين الإسلام. وتنفي عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم صفة النبي، الذي اصطفاه الله ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين. وتنفي عن القرآن الكريم صفة الكتاب المقدس الذي أنزله الله سبحانه عن طريق الوحي من السماء.

وقد غالى بعض الغربيين، وعلى رأسهم بعض المغرضين الحاقدين من اليهود، بأن صنعوا ما يسمى قرآن المسلمين ليقولوا إن أي إنسان يمكن له أن يؤلف هذا القرآن. وليتهم توقفوا عند هذا الحد، بل طرحوا في هذا الكتاب سوراً أطلقوا على بعضها سورة التجسد، وسورة المؤمنين، وراحوا يشتمون فيها أمة الإسلام ونبي الإسلام وما إلى ذلك. فإذا كان التعارف يقتضي فهم المتحاورين لبعضهم بعضاً فأين تقف هذه المقولات؟ هل تساهم في خلق جو أخوي إنساني، أم أنها تقف عثرة في وجه المتحاورين؟

قد يقول بعض الغربيين إن بعض المتطرفين من الغرب يطرحون هذه الطروحات، مثلما يطرح بعض العرب والمسلمين طروحات في غاية التعصب. وهذان الطرفان لا يمثلان حقيقة التوجه الغربي وحقيقة التوجه الإسلامي.

إن الأسئلة التي طرحناها تنقسم بطبيعتها إلى قسمين: قسم يتجه نحو المسلمين والآخر يتجه إلى الغرب. خمسة أسئلة كبرى تتجه إلى المسلمين ليجيبوا عنها، ويبينوا موقفهم من مضمونها.

كيف ينظر المسلمون إلى الغرب؟ كيف ينظرون إلى علاقة الشعوب الأوروبية بالعقيدة المسيحية؟ كيف ينظرون إلى السيد المسيح والإنجيل؟

نعتقد أن الإجابة عن بعض فقرات هذا السؤال موجودة بصراحة في نصوص القرآن الكريم ولا سيما ما يتعلق بالسيد المسيح عليه السلام وأمة مريم. فالمسلمون يعترفون ويؤمنون إيماناً من صلب عقيدتهم أن مريم صدّيقة اصطفاها الله، وأن المسيح كلمة الله ألقاها إلى مريم، وأنه نبي مرسل صاحب كتاب جاء لبني إسرائيل فغدروا به وحاربوه، وأن الأنبياء جميعاً أخوة لا ينقض أحدهم الآخر. وقد أورد القرآن الكريم قصة النبي عيسى بن مريم في عدد من السور. وفصل عنه وعن أمه في سورتي مريم وآل عمران.

هذه هي نظرة المسلمين الثابتة تجاه النبي عيسى عليه السلام، وتجاه أمه مريم بنت عمران. ويؤمن المسلمون بأن الإنجيل الذي أنزل على عيسى هو كتاب من الله، مثله مثل التوراة التي أنزلت لبني إسرائيل، ومثله مثل القرآن الذي أنزل على محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

ويرى المسلمون أن النصرانية دخلت إلى أوروبا واضطُهد النصارى الأوائل وقتلوا وشردوا على أيدي الوثنية الرومانية واليهود. ويعرف المسلمون أن المسيحية الغربية تنقسم إلى مذاهب، كاثوليكية وأرثوذكسية وبروتستانتية. وليس للمسلمين علاقة بما اختلفت فيه هذه المذاهب من حيث التفاصيل العقيدية والتشريعات.

أما كيف ينظر المسلمون إلى الغرب؟ فهذا يرتبط بأزمان وأوقات تختلف عن بعضها من حيث تحرك الغرب إن كان تحركاً استعمارياً كما كان في بداية القرن الماضي، أو كان تحركاً اقتصادياً ثقافياً كما هو عليه اليوم.

فموقف المسلمين من الغرب يحدده الغرب نفسه، فبقدر ما يكون الغرب حوارياً ينفتح عليه المسلمون. وبقدر ما يكون الغرب صدامياً يصطدم به المسلمون.

مع ملاحظة أن الشعوب غالباً ما تتبع سياسة قادتها. فالموقف الإسلامي من الغرب هو موقف عام تفرضه عليه آليات التحرك الغربي.

وبمعنى آخر، فإن طبيعة الفهم الإسلامي المعاصر هي طبيعة حوارية مسالمة لا تحب الاعتداء على أحد. لكنها في الوقت نفسه لا تقبل الاضطهاد الاستعماري، ولا تقبل الانتقاص من هويتها وشخصيتها وسيادتها. والمسلمون مع الحوار والتعارف، لكنهم ليسوا مع افتعال الصدام وآلياته القاتلة.

ويطرح السؤال الثاني نفسه على المسلمين:

كيف تنظرون إلى التراث الغربي، الفلسفة والأفكار الغربية، الآداب والفنون، العادات والتقاليد الغربية، الحضارة الغربية، نظام الحكم في الغرب؟

لا ينكر المسلمون أن في كل نتاج فكري وثقافي وتراثي لأي شعب من الشعوب ما هو إنساني جيد، وما هو مغلق متعصب سيء. ولا شك أن كل نتاج تراثي هو انعكاس لحركة بشرية تحكمها السياسة والقوانين والظروف الاقتصادية والاجتماعية.

ونحن نحترم ما قدمه الفلاسفة الغربيون من نظريات في الفكر الغربي من كانط إلى سبينوزا إلى ديكارت إلى من شابههم. على الرغم من أن أفكارهم قد تناقض نظرتنا الفلسفية للوجود والإنسان. ولكننا نعتبر تلك الأفكار والفلسفات نتاجاً إنسانياً خدم ظروفاً أوروبية بعينها. لا ننتقص منها كونها تراثاً غربياً يناسب ظروف الناس هناك، وليس من حقنا الهجوم عليه وإهماله.

نحن نحترم كل تراث الأمم لأنه يخصها ويناسب بيئتها.

ولعل العرب والمسلمين من أكثر الشعوب إطلاعاً على الآداب الغربية كونها تشكل أحد أوجه التراث الغربي برمته. ونعتقد أن روايات هوغو، وهمنغواي وديكنز ودوستوفسكي وتوليستوي وغورغي، ومسرحيات شكسبير وقبله ما أنتجه اليونان

من مسرحيات وأساطير وملاحم، كل ذلك يعرفه العرب والمسلمون. وقد يعجبون بالكثير منه بل ويتأثرون به من حيث فنيته وقيمته الأدبية والفكرية. وما ينطبق على الآداب ينطبق على الفنون الجميلة كالشعر والفن التشكيلي والنحت والتصوير والموسيقا.

ولاشك أن الحضارات المتعاقبة في اليونان وروما، على الرغم من أن صدامات كثيرة حدثت بين العرب وبين الإغريق والرومان إلا أنها تشكل لدى العرب إحدى إبداعات البشرية في كثير من جوانبها.

ومن الطبيعي إذاً أن يكون العرب والمسلمون على اطلاع واسع على الغرب في فلسفته وفكره وحضارته وتاريخه. وفنونه وآدابه. وليس يعني ذلك أن كل ما قدمه الغرب هو جيد، فتقييم التاريخ وكذلك تقييم الحضارة يبين دوماً الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية لما عاش عليه أي شعب من الشعوب.

كيف ينظر المسلمون إلى وحدة الدول الأوروبية، هل هذا الاتحاد الأوروبي يؤثر على الأمة العربية والإسلامية سلباً أم إيجاباً؟

لاشك أن ما تقوم به الدول الأوروبية من توحيد لاقتصادها وعملتها وفتح الحدود بين بعضها عمل عظيم إذا ما وُجه بشكل صحيح. وكل عربي ومسلم يأمل من هذا الاتحاد أن يكون في خدمة التواصل والانفتاح بين الشعوب، وكذلك في خدمة المنفعة الإنسانية ومساعدة الفقراء في أفريقيا وغيرها، لتكون التنمية شاملة تعم بلدان العالم أجمع.

هل يسمح العرب والمسلمون بتبني الأفكار الغربية وانتشارها في الأوساط العربية والمسلمة؟

نتوقف هنا لنميز بين ما هو ضار ونافع. فالأفكار العلمانية الإلحادية تناقض حياتنا ومبادئنا. والأفكار الداعية إلى الإباحية التي تسمى في الغرب الحرية الشخصية

تناقض طبيعة إنسانيتنا وعقيدتنا. وكل الأفكار الهدامة مرفوضة بالفطرة لدى كل إنسان، فهل تقبل الأسرة الغربية أن تتفكك وتدمر وتستباح بحجة الحرية الشخصية؟

هل يقبل الغربيون أن يصل عدد الأولاد غير الشرعيين مستوى يرعب المجتمع ويدمر بنيته الأساسية؟

فهذه أفكار لا تقبلها الفطرة الإنسانية، فكيف بالعرب والمسلمين يقبلونها؟

ولكن، أفكاراً أخرى تحمل من الإيجابية الكثير. ونذكر أن الكنيسة الكاثوليكية وقفت في مؤتمرات بكين والقاهرة وبرشلونة موقفاً مماثلاً لموقف المسلمين، فهي ضد الإباحية وضد الإجهاض، وضد الفوضى الجنسية. وهي مع السلوكيات الأخلاقية الراقية. ومع الأسرة المحافظة التي تحافظ على شخصية الأم والمرأة والطفل والرجل والأسر التقليدية البعيدة عما يسمى زواج المثلين وما شابه ذلك.

ونأتي أخيراً إلى سؤال يقول:

ما هو موقف المسلمين من حركات التنصير في بلدان آسيا وأفريقيا وخاصة البلدان المسلمة؟

هنا لابد من الإشارة إلى أن هذه المسألة معقدة بشكل كبير، فهي في أساسها تدخل في باب الصراع وليس في باب التعارف والتواصل بين الشعوب. فإذا كانت حركات التنصير تبغي تحجيم الإسلام والمسلمين فهذا مرفوض من أساسه. اتركوا الناس يبحثون عما يرضيهم من العقائد وأنتم تشهدون في أوروبا اليوم حركة واسعة لاعتناق الإسلام. تأتي عفوية دون ضغط أو إكراه فليكن طريق خلاص البشرية من الوثنيات القديمة والجديدة طريقاً حراً دون مغريات ودون ضغوط ودون نفاق وتحايل. وقد بلغ العالم اليوم درجة من الوعي تؤهله أن يختار طريقه بنفسه ويقارن بين ما هو أقرب إلى عقله وقلبه وبين ما هو بعيد.

بقي أن نعيد طرح الأسئلة على الغرب ونحن ننتظر أن يجاب عليها ونحن نتحاور ونتعارف ونتواصل.

1 - كيف تنظرون إلى الإسلام، وإلى رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. إلى كتاب القرآن، إلى التاريخ الإسلامي؟ إلى علاقة الإسلام بما يسمى الإرهاب؟

2 - كيف تنظرون إلى التراث العربي الإسلامي، الفلسفة والأفكار، الآداب والفنون، العادات والتقاليد العربية والإسلامية، الحضارة الإسلامية، نظام الحكم كما ورد في التشريع القرآني والسنة النبوية؟

3 - كيف تنظرون إلى الوحدة العربية والإسلامية، هل يسعدكم قيامها أم يغيظكم؟ وهل أنتم سعداء لهذا الواقع العربي المقسم الضعيف أم أنكم تودون لو اجتمع شمل العرب في دولة واحدة ذات سيادة؟

4 - هل يسمح الغرب بانتشار الإسلام في بلاده، وما هي الرؤية الغربية لذلك؟

5 - ما هو موقفكم من نشر المسيحية وأساليب نشرها في أفريقيا وآسيا؟

نترك الأجوبة بين يدي الذين يفترضون أنفسهم أهلاً للحوار وللتعارف ولسنا في مكان الحكم المسبق على موقف الغربيين من هذه القضايا. فنحن نفترض حسن النية بداية، لأن التعارف يتطلب منا أن نأتي إلى التعارف والحوار ونحن مخلصون في توجهاتنا وأهدافنا وغاياتنا. نضع تراكمات الماضي جانباً ونتطلع إلى مستقبل جديد لبني البشر يقوم على الاحترام المتبادل المتساوي.

البحث عن المفاهيم الصحيحة
وإزالة المفاهيم الخاطئة

في آلية الحوار وتبادل الأفكار لابد أن يفتش المتحاورون عن المفاهيم الصحيحة المشتركة. صحيح أن هناك مئات المفاهيم التي يختزنها العقل البشري، وصحيح أيضاً أن مدلولاتها أيضاً تختلف من بيئة لبيئة ومن مجتمع لآخر. ولكن مفاهيم كثيرة تبرز أكثر من غيرها كونها ترتبط بالسلوك اليومي والحوار والتفاهم، وتؤثر سلباً أو إيجاباً على المستوى الإنساني العام.

ولعل خطوة البحث عن المفاهيم الصحيحة المشتركة توصل إلى سيادتها وانتشارها باعتبارها مفاهيم صالحة للجميع.

لقد خرج علينا هنتغتون بمفهوم صدام الحضارات وعممه حتى بات كافة الكتاب والمفكرين يلهجون به. فهذا المفهوم مفهوم خاطئ في بنيته. خاطئ في افتراضه يؤسس لصراع بين الشعوب لا ينتهي.

فلماذا لا نعمم مفهوم حوار الحضارات. الذي يفتح الآفاق واسعة لتعارف الشعوب وتواصلها. فبين مفهومي صدام الحضارات وحوار الحضارات مسافة طويلة جداً. بل هما مفهومان يسيران في خطين متوازيين لا يلتقيان.

فإذا كان لابد من الاجتماع حول طاولة التعارف الإنساني كآلية من الآليات لابد أن يطرح مفهوم حوار الحضارات كمفهوم ثابت راسخ لا يجب النقاش فيه. وفي نفس الوقت لابد من استبعاد صدام الحضارات أو صراع الحضارات كمفهوم خاطئ.

وكذلك مفهوما العولمة والعالمية، فمفهوم العولمة مفهوم خاطئ في أبعاده ومقاصده، يريد أن يلغي القوميات المحلية وثقافاتها الخاصة وتراثها. ويؤسس لاستئثار فئة من البرجوازيين بالمليارات من الدولارات أو اليورو أو الذهب ويترك الشعوب تعيش أبشع أنواع الفقر، وفي العولمة موت للأكثرية البشرية وحياة لفئة قليلة تملك الإمكانات المادية والمالية والصناعية.

بينما العالمية تعني الانفتاح على الكون كل حسب اجتهاده إن كان فرداً أو أمة أو شعباً. العالمية لا تلغي الآخر، وخصوصيات الثقافات والحضارات. تترك العالمية لكل شعب أن يختار حياته حسبما يشاء وحسب موقعه، لا تُفرض عليه أفكار الآخرين ولا يسيّر اقتصاده حسب اقتصاد الرأسمالية العالمية. لماذا يصر بعض الغربيين على مفهوم العولمة بينما مفهوم العالمية أقرب إلى العقل البشري الإنساني. وأقرب إلى العدالة والمساواة واحترام الجميع للجميع؟

ونعتقد أن مفهوم العالمية أقدر على تأصيل التفاهم بين الشعوب، وهو ليس غريباً عن العقل البشري. بينما العولمة ما يزال مفهوماً غامضاً لدى الكثيرين، ومن فهمه فإنه يرفضه لما فيه من خلل في أهدافه وغاياته، بل في آلية تعاطيه مع البشر والوجود المادي.

ولعل مفهوم الشرق شرق والغرب غرب، من أكثر المفاهيم التي حُوّلت عن معناها إلى معانٍ سلبية، يقصد منها أن الشرق لا يمكن أن يتجاوب مع الغرب. ويعني أن هناك سداً منيعاً يفصل بين الشرق والغرب. وهناك ثقافة وحضارة وفكر وفلسفة وعقائد تختلف كلياً عن ثقافة الغرب وحضارته وفكره وفلسفته وعقائده.

وقد ساد هذا المفهوم عشرات السنين، حتى بدا أنه يؤثر على مجمل التفكير عند العرب والمسلمين وعند الغرب بشكل عام.

ومن منطلق إسلامي صرف نرى أن الشرق والغرب والجنوب والشمال هي تسميات لا تعني أن أحدها أفضل من الآخر (فلله المشرق والمغرب) وكل إنسان مستخلف في هذه الأرض أياً كان اتجاهها وأياً كان اتجاهه.

فهذا المفهوم إذا كان يعني فصل الأرض إلى شرق وغرب فهو مرفوض أساساً لأنه يخالف المنطق الجغرافي والإنساني. ومن المعروف أن كل شرق يصبح غرباً وكل غرب يصبح شرقاً إذا ما تحرك الإنسان بشكل دائم في الكرة الأرضية.

صحيح أن للشرق حضارته وثقافته وكذلك للغرب ثقافته وحضارته، ولكن العصر الحالي أدخل الثقافات والحضارات في بعضها إلى حد كبير. فملايين المسلمين في دول أوروبا وأمريكا يساهمون في تقدم العلوم والفنون على شتى أجناسها. ولا يستطيع أحد أن ينكر هذا الدور.

وفي الوقت نفسه لا أحد يستطيع أن ينكر مساهمة العلماء والخبراء في تطوير القدرات العربية في مجال الصناعة والتكنولوجيا وعلوم البترول والتعدين وغيرها. فلم يبق الشرق شرقاً ولم يبق الغرب غرباً.

يقول تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: 15).

فمن هذا الفهم للكون والأرض ينطلق بنا الإسلام إلى آفاق أوسع بكثير مما ينحصر في مشرق معين أو مغرب معين.

ويندرج مصطلح آخر في قائمة المصطلحات الخاطئة، وهو مصطلح العالم الثالث، الذي ظل يستخدم للدلالة على العرب والمسلمين بشكل أكثر تحديداً. فهذا المصطلح يعني أن هناك عالماً أول وعالماً ثانٍ. ولكن ما هو العالم الأول وما هو الثاني وما هو الثالث؟

لقد أخذ هذا المفهوم دلالة سلبية في أكثر أوجهه. إذ أنه عنى لكثير من الغربيين العالم المتخلف الجاهل المريض. ولذلك ليس هناك عالم أول أو غيره، هناك عالم واحد، لكن المستأثرين بالثروة أرادوا أن يبقى الفقراء فقراء والأغنياء يزدادون غنىً وأرادوا من وراء ذلك تصنيف العالم حسب مزاجهم المادي الرأسمالي.

ولعل مصطلح الشرق الأوسط من أكثر المفاهيم تناقضاً مع الواقع، فحتى الأوساط الغربية منذ الحروب الصليبية ومروراً بفترة الاستعمار التقليدي التي سادت في الثلث الأول من القرن العشرين وحتى عام 1948، كانت تطلق على المنطقة الوطن العربي لأن هذا المصطلح يعبر عن واقع جغرافي موحد صحيح. ولكن الأوساط الغربية التي صنعت إسرائيل أرادت أن تغير الواقع الصحيح بواقع مغلوط فأطلقت اسم الشرق الأوسط على الوطن العربي، ليشمل الكيان الإسرائيلي، ويتسع ليشمل تركيا وإيران، بينما نحن نعرف أن مصطلح الوطن العربي هو الأصح تاريخياً وجغرافياً، وأن مصطلح العالم الإسلامي أيضاً يحدد إطار الدول الإسلامية كتركيا وإيران وباكستان وإندونيسيا وماليزيا وغيرها من دول شرق أفريقيا ووسطها وغربها.

آلية التعارف على مستوى الأفراد والمجتمعات والشعوب والأمم:

وحتى لا يكون التعارف مقتصراً على المؤتمرات والندوات والصيغ الدبلوماسية الرسمية، فإن من واجب كل فرد أياً كانت جنسيته، أن يتحرك باتجاه الآخر ليطرح فكره وفلسفته الحياتية ورؤيته للعالم الذي يعيش فيه وموقفه من الأمم والشعوب والعقائد والأفكار الأخرى.

ولعل ما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمعات والشعوب، فالحياة حركة دائمة ووسائل النقل الحديثة جعلت البعيد قريباً، وجعلت المستحيل ممكناً. ولعل التداخل بين الشرق العربي الإسلامي والغرب أصبح كبيراً جداً. وقد تجاوزت الشعوب مفهوم الإقليمية المسوّرة. وانفتحت أكثر فأكثر على بعضها، ولم يبقَ إلا أن

تبحث في إزالة المفاهيم الخاطئة وأن تركز على ترسيخ المفاهيم الصحيحة على كافة المستويات السياسية والفكرية والاجتماعية وغيرها .

ليس المطلوب فقط أن يكون الحوار من القمة إلى القاعدة ، بل المطلوب أيضاً أن يكون الحوار جماهيرياً وشعبياً . ونعتقد أن هذا النوع من الحوار الجماهيري بين الشرق والغرب يجدي نفعاً سريعاً ، تظهر آثاره مباشرة على العلاقات الإنسانية .

وبذلك يكون مفهوم التعارف قد حقق القفزات النوعية باتجاه خلق عالم إنساني متفاهم متواصل وليس عالماً متصادماً ومنقطعاً .

الفصل الخامس:

آثــار ونـتـائـج

كيف طرح الإسلام مفاهيم الحياة الإنسانية، وهل تصلح هذه المفاهيم لمستقبل التعارف الإنساني؟

حتى يتعرف العالم الإنساني على الإسلام كان لابد لنا من طرح نظرة الإسلام لمفاهيم الحياة الإنسانية أمام الشعوب جميعها حتى تتيسر عملية التعارف بين المسلمين وبين غيرهم. والواقع أننا نحن ـ العرب والمسلمين ـ نفهم منهج القرآن على أنه المنهج الميسّر المفهوم الواقعي. ونعتقد أن المفاهيم التي طرحها هذا المنهج تعطي للبشرية آلاف الحلول لآلاف المشاكل.

ربما قلتم: إنكم أيها المسلمون بسبب انتمائكم لهذا الدين تظنون ذلك، وقد لا نظن ذلك. وربما نعتقد أن ما طرحته أفكارنا وفلسفتنا وعقائدنا هو الأصح من بين المناهج.

ربما، وهذا الاحتمال قائم حتى يثبت ما طرحناه أو يثبت ما طرحتموه. المسألة عائدة إلى التعرف على المفاهيم الحياتية الإنسانية التي طرحها الإسلام بكل وضوح.

فالإسلام أمر بالوفاء بالعهد وبالعقود والأيمان.

يقول تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (البقرة: 40).

ويقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ (المائدة: 1).

ويقول تعالى:

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام: 152).

ويقول تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ (النحل: 91).

والإسلام أنكر على من يقول ولا يفعل.

يقول تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة: 44).

والإسلام أمر بالعفو والصفح وكظم الغيظ.

قال تعالى:

﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ (البقرة: 109).

وقال تعالى:

﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: 159).

وقال تعالى:

﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ (الحجر: 85).

وقال تعالى:

﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (النور: 22).

ويقول تعالى:

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الشورى: 40).

وقد حذر الإسلام من كتم العلم.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 146).

وقد دعا الإسلام للانتصار بعد الظلم.

فقال تعالى:

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: 194).

وقال تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (النحل : 126).

وقد أحل الإسلام الزينة وأكل الحلال والطيبات.

فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ (البقرة : 168).

وقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (البقرة : 172).

وقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (المائدة : 87-88).

وقد حض الإسلام على الإحسان بكل وجوهه.

وقال تعالى :

﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة : 195).

وقال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران : 134).

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ (النحل : 90).

وقال تعالى :

﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ (الإسراء : 28).

وقال تعالى :

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (الإسراء : 53).

وقد نهى الإسلام عن قتل الإنسان نفسه (الانتحار) وعن إلقاء النفس في التهلكة.

فقال تعالى :

﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة : 195).

وقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء : 29).

وقد ذم الإسلام التقليد الأعمى.

فقال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (لقمان : 21).

وقال تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ (الصافات : 69 ـ 70).

وحض الإسلام على الإنفاق لمساعدة الفقراء والمحتاجين بشتى أصنافهم :

فقال تعالى :

﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة : 195).

وقال تعالى : .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ (البقرة : 254).

وقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ (البقرة : 267).

وقال تعالى :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ (إبراهيم : 31).

وقال تعالى :

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد : 7).

وقد أوصى الله سبحانه باليتامى والمساكين والمستضعفين والنهي عن أكل أموالهم.

فقال تعالى :

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ (البقرة : 83).

وقال تعالى :

﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (النساء : 2).

ويقول تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ (النساء : 10).

ويقول تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ (الأنعام : 152).

ويقول تعالى :

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ (الإسراء : 26).

ويقول تعالى :

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان : 8).

ويقول تعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى : 9 - 10).

وقد نهى الإسلام عن أكل الأموال بالباطل والإدلاء بها إلى الأحكام.

فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 188).

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ (النساء: 29).

وحض الإسلام على إعتاق الرقاب (تحرير الرقيق).

فقال تعالى:

﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ (النساء: 92).

وقد حض الإسلام على قصاص القاتل.

فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ (البقرة: 178).

وحض الإسلام على الإصلاح بين الناس.

فقال تعالى:

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ (الأنفال: 1).

وقال تعالى:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ (الحجرات: 9).

وقد دعا الإسلام إلى السلم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ (البقرة: 208).

وحض كثيراً على بر الوالدين والإحسان لهما.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾

وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء: 23 ـ 24).

وقال تعالى:

﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنًا ﴾ (العنكبوت: 8).

وقال تعالى:

﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهًا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهًا ﴾ (الأحقاف: 15).

أما الفقراء فكان الإسلام وما زال يشدد على مساعدتهم.

يقول تعالى:

﴿ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴾ (الحج: 28).

وحض الإسلام على الاتحاد واتباع الصراط المستقيم.

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران: 103).

وقال تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ (الأنعام: 153).

وأمر الله سبحانه أن يأمر الإنسان بالمعروف وينهى عن المنكر.

فقال تعالى:

﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ (آل عمران: 104).

ويقول تعالى:

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: 199).

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (الحج: 77).

ووصى الإسلام بالجار والصاحب.

فقال تعالى:

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (النساء: 36).

ووصى الإسلام أن نحكم بالعدل ولا نظلم أحداً:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (النساء: 135).

ويقول تعالى:

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (المائدة: 42).

ويقول تعالى:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (النحل: 126).

وحض الإسلام على التحية وإفشاء السلام والاستئذان وأدب الضيافة.

فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ (النساء: 86).

ويقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ (النور: 27 ـ 28).

وقد حض الإسلام على التثبت من خبر الفاسق الذي يريد الفتنة والإيقاع بين الناس.

فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ (الحجرات: 6).

وقد حض الإسلام على العمل.

فقال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك: 15).

ولننظر ماذا قاله القرآن الكريم في الأسرى:

يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الأنفال: 70).

ويقول تعالى:

﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان: 8).

وهناك آلاف المفاهيم التي تناولها القرآن الكريم وأصبحت أسساً راسخة في الإسلام ينبني عليها صرح العلاقات الإنسانية. ولو تمتع العالم كله بفهم صحيح لهذه المفاهيم لما وُجدت في الكون مشكلة إنسانية تعاني منها المجتمعات والشعوب والأمم.

هذه هي مفاهيمنا الإنسانية، نطرحها على طاولة الحوار والتعارف لتقابل ما يطرحه الآخرون من مفاهيم مماثلة أو مغايرة، حتى يحكم العقل الإنساني الواعي على أي المفاهيم بالصلاح. وربما تتلاقى المفاهيم فتسهل عملية التعارف والحوار. ونصبح جميعاً أكثر قرباً من الوصول إلى قواسم مشتركة تمهد الطريق لبناء إنسانية واعية محترمة.

لقد تناولنا فيما سبق قضايا كثيرة نعتقد أنها تدخل في صلب عالم التعارف والتحاور بين الشعوب.

ومع اقترابنا من المحطة الأخيرة من هذا الكتاب، لابد لنا أن نبين وبكل صراحة ووضوح أثر التعارف أو لنقل الآثار الناتجة عن هذا التعارف فيما إذا استطعنا الوصول إلى اتفاق مبدئي صادق ونيّة عملية صادقة لنعمل جميعاً من أجل هذا التعارف الإنساني وحتى إن لم نصل إلى هذا الاتفاق، فإننا، ومن باب الإيمان الإسلامي الراسخ بالتعارف، نضع بين أيدي أبناء البشرية رؤيتنا الواضحة تجاه مفهوم التعارف وآلياته. وباعتقادنا أن الآثار المتصورة والمتوقعة لهذا التعارف تتسع لتشمل الأفراد والمجتمعات والأمم، وتتسع لتشمل مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ونعتقد أن للتعارف آثاراً على السلوك الإنساني بشكل عام. وله الأثر في تخفيف التوتر الدولي والعداء بين الشعوب، وبشكل عام يوحّد التعارف البشرية جمعاء في وجه الأفكار العنصرية والصهيونية والحروب الظالمة. كما أنه يخفف من معاناة الشعوب الفقيرة. ويساعد بشكل قوي في القضاء على الجهل والفقر والمرض والأمية. ويساهم في رفع المستوى الصحي والمعيشي بين الشعوب الفقيرة والزراعية. وكذلك فإن التعارف يرفع المستوى التعليمي والثقافة الجماهيرية. ويساهم بشكل قوي في تطوير الحريات السياسية والاجتماعية وفي الابتعاد عن مفاهيم الفوضى الاجتماعية والإباحية. وأخيراً، فإنه يساهم بشكل جذري في التطور العلمي والحضاري ليعم الجميع.

من هنا، فإننا، في هذا الإطار، آثرنا أن نجيب على تساؤلاتنا ونوضح الكيفية والأسباب والآليات، حتى لا يبقى أمامنا سوى الالتزام الأدبي والخلقي أمام استحقاقات كبيرة جداً، علينا جميعاً أن ندرك كيف نؤدي أمانتها ونفي بالوعود تجاهها.

أولاً: أثر التعارف على السلوك الإنساني

من المعروف أن بعض الفلاسفة عرّف الإنسان بأنه كائن اجتماعي، ونحن نقول: إن الإنسان هو المخلوق العاقل الذي يحتاج عقله لمن يحاوره. قد يحاور الإنسان الطير والشجر والطبيعة بشكل عام. ولكن حواره لها حوار من طرف واحد، على الرغم من أن بعض الرومانسيين يُنطقون الطبيعة حسب تخيلاتهم وتصوراتهم الرومانسية.

لكن الإنسان هذا الكائن العاقل الاجتماعي ليس من طبيعته أن يُخلق فرداً ويعيش فرداً ويموت فرداً، فمن الطبيعي أن يكوّن الفرد مع الفرد أمراً مختلفاً. فإذا كوّن مجموعة من الأفراد دائرة بشرية تفاهموا على التفاهم بينهم ثم التخاطب والتثاقف حتى يكوّنوا مجتمعاً له فكره وثقافته وتوجهاته.

ومن الطبيعي أن لكل إنسان سلوكه ولكل مجتمع سلوك جماعي يتعارف عليه حسب بيئته ومعتقده وتصوره. لكن أي مجتمع له سلوك جمعي لا يدرك مباشرة ما إذا كان هذا السلوك صحيحاً أو غير صحيح.

من هنا، يأتي دور التعارف وانعكاسه على السلوك الإنساني، فيظهر سلوك أي فرد أو أي مجتمع عندما يُقارن بسلوك الآخرين. وببساطة، نقول: إن الإنسان الذي كان يعيش عارياً أو شبه عارٍ في مجاهل الغابات أو الجبال البعيدة، يتأثر بسلوك الآخر الذي عرف اللباس وأدرك مدى نفعه على مستوى الشكل والمضمون. فبمجرد الرؤية البصرية لابد أن تنطبع صورة الآخر في ذهنه ونفسه. وكلما اقترب الإثنان من بعضهما كلما زاد التأثير. وبهذا يكون التعارف الأولي فاتحة الأخذ والعطاء.

إن عشرات السلوكيات تنكشف سلبياتها أو إيجابياتها عندما يتعارف فردان، كل فرد له بيئته ومكوناته وثقافته وشخصيته. فما بالنا إذا حصل التعارف في عصر متقدم جداً في جميع المجالات الاجتماعية والسياسية والسلوكية وغيرها؟

إننا حين ندعو إلى التعارف البشري ندرك أن السلوك البشري لابد له من التأثر والتأثير، وطالما هناك عقائد وأفكار وثقافات متباينة لابد أن تكون ذات أثر كبير في السلوك الحياتي اليومي.

وحينما ننظر اليوم إلى المجتمعات الإنسانية برمتها نرى أنها تتوحد أو تكاد في إطار من التوجهات الحياتية بشكل عام. فالتقيد بالمواعيد ومراقبة الحركة الفاعلة في العمل والوظائف وغيرها أمر يتفق عليه كل الناس، ومن يشذ عن طبيعة هذا التحرك البشري الطبيعي.

لقد أصبح مفهوم النظافة مثلاً من المسلمات والبدهيات عند كل شعوب الدنيا. بينما نرى أن هذا المفهوم نفسه يُفتقد في بعض المجتمعات قبل قرون قليلة مضت. لقد أثر البشر ببعضهم حتى باتت السلوكيات الإيجابية تظهر بشكل واضح في البشر. ولكن مع كل هذا التفاؤل لابد أن نعترف أن سلوكيات معينة ما تزال تحكم اختلاف الشعوب عن بعضها.

فالحرية الجنسية التي نرى مظاهرها في أكثر العالم الغربي، أصبحت أمراً طبيعياً يتقبله المجتمع كالمأكل والمشرب والتعليم. بينما نرى أن المجتمع العربي المسلم يعتبر هذه الحرية الجنسية فوضى وإباحية تدمر المجتمعات.

فالتعارف بين نموذجين مختلفين في مثل هذه المسائل يطرح دوماً السلوك الأسلم الذي يحدده الأساس التشريعي الديني. ويساهم في تحديده الذوق البشري الذي تدفعه فطرته الإنسانية على الإحجام عن مثل هذه الفوضى الجنسية والإباحية.

هل يسمح السلوك الإنساني السوي بأن يخرج الرجل عارياً في حديقة من حدائق لندن؟

وهل الذوق الإنساني أن تخرج امرأة عارية في تلك الحديقة بحجة أنها حديقة الحرية؟

لماذا ترفض الأسر الأوروبية المحافظة مثل هذا السلوك؟

نعود إلى مسألة التعارف بين البشر فهي في حد ذاتها ليست مسألة جامدة ساكنة، بل هي متحركة تؤثر في تغيير كثير من السلوكيات البشرية. ولعلنا نتذكر هنا كيف أن التعارف الذي نشأ بين الجاليات المسلمة والمجتمعات الغربية أثر كثيراً في تغيير سلوك الكثيرين من الشباب والفتيات الغربيين. وكم من هؤلاء وبسبب عودتهم إلى فطرتهم الإنسانية انتموا إلى الإسلام وأحبوه لأنه خلصهم من تلك الفوضى الاجتماعية ومن العبث بالإنسان وبكرامته.

وكثيرة هي الأمثلة حول أثر التعارف على السلوك الإنساني، ولعلنا في هذا الإطار نقترب من الأمثلة الحية أكثر فأكثر لنرى حقيقة ما نرمي إليه.

في أحد اللقاءات اجتمعنا بمدير مهرجان البحر الأبيض المتوسط السيد جينو عبدالله لوكا بوتو. إيطالي الجنسية، وكان اللقاء في منتصف الشهر السابع من هذا العام. اختار السيد جينو الإسلام طريقاً للخلاص من الفوضى الاجتماعية التي تسود إيطاليا وراح ينهل منه حتى أصبح من أشد المدافعين عنه.

يقول السيد جينو: (لو تنظرون إلى سلوك أكثر الناس في المدن الإيطالية الكبرى تشعرون بأن مجتمع الحيوانات أفضل. على الأقل ترى في الطبيعة عصفوراً صغيراً أو كبيراً لا يعاشر سوى زوجته. فإذا ما أراد عصفور آخر التحرش بها هجم عليه وقاتله وطرده، عصفور لا يخون زوجته. وكل الطيور كذلك. أليس هذا مدهشاً. ما السر فيه؟ إن نظرة واحدة إلى المجتمعات الغربية توحي لك بأن العصفور يمتلك من الضمير والحياء أكثر مما يمتلك البشر.

هذا ما دفعني لمحاسبة نفسي أولاً، وهذا ما دفعني إلى التعرف على بعض المسلمين الواعين الذين عرّفوني على الإسلام وجوهره، فأدركت أن التعرف على الحقيقة لا يأتي إلا من خلال التعارف بين الناس.

على كثير من أرصفة الشوارع الخلفية في روما أو لندن أو باريس وبعد أن تغيب الشمس بقليل تجد المئات من الرجال والنساء العاشقين يتعاطون مظاهر الجنس وهم يجلسون على حواجز الأرصفة. أؤكد أن أكثر من نصفهم يخونون زوجاتهم ويخنّ أزواجهن. فما هذا السلوك القاتل للمجتمعات؟

إن سلوك الكثيرين من المسلمين المهذبين يطرح دوماً على المجتمعات الغربية أمثلة رائعة على الإخلاص بين الزوجين. فلا خيانة ولا غدر. وكم من العائلات المسلمة والغربية المتجاورة جرت بينهما علاقات طيبة وأثرت على سلوك الغربيين بالابتعاد عن هذه المظاهر الفاسدة.

وكم من الشباب المسلم الذين تزوجوا من غربيات أعطوا الأمثلة الرائعة على الحفاظ على القيم الإنسانية والسلوك الإنساني السوي. وبنوا أسراً جميلة مترابطة متماسكة. أليس هذا سببه التعارف الإنساني والحوار المجدي؟).

ويضرب السيد جينو مثالاً على نفسه فيقول: (وبسبب التعارف الحقيقي وبعد أن شرح الله صدري للإسلام آثرت أن أتزوج عربية مسلمة. واخترت فتاة فلسطينية من مدينة غزة وأنجبت طفلاً والحمد لله. لقد أدركت أن هذه الزوجة المسلمة هي التي تحافظ على كرامتي الإنسانية إن كنت حاضراً أو مسافراً. فأين هذا في المجتمعات التي تقول عن الفوضى الجنسية والإباحية حرية شخصية؟)[1].

إن السلوك اليومي الذي يظهر هنا وهناك يكتسب كثيراً من التعارف الحاصل بين الجماعات الإنسانية المختلفة الأصول. وليس غريباً أن نرى كل يوم أو كل ساعة

(1) مقابلة شخصية تمت مع السيد جينو في دمشق.

تغيراً ما في السلوك الإنساني. وذلك بسبب التفاعل اليومي بين أجناس البشر. وما يحملونه من ثقافات وعادات مسلكية مختلفة.

ولا شك أن الطبيعة البشرية في كثير من جوانبها ميّالة للتقليد. فإذا كان التقليد يتجه نحو السلوك الأفضل فإنه يختصر المسافات ليصل إلى نماذج مسلكية أقل ما يقال فيها إنها تتناسب مع طبيعة الخلق البشري وعقله ونفسيته. بل وتتناسب مع فطرته التي فطر الله عليها بني البشر.

ثانياً: أثر التعارف الإنساني في تخفيف التوتر الدولي والعداء بين الشعوب

نعتقد أن التوتر الدولي والعداء بين الشعوب هو سلوك سلبي جمعي. فكما للتعارف أثر إيجابي على السلوك الفردي والاجتماعي، فإن له أثراً أيضاً على السلوك السياسي الدولي والسلوك الجمعي البشري.

صحيح أن شعوب الأرض بعد الحرب الكونية الثانية صنعت لها مؤسسات دولية كهيئة الأمم المتحدة وما انبثق عنها من محكمة العدل الدولية والمنظمات الأخرى. ولكن آلية عمل هذه المؤسسات الدولية انحرفت عن غايات الشعوب وأهدافها بسبب تسلط القوى النووية الكبرى عليها. وأفقدت معنى التعارف الإنساني روحه وإيجابيته. بل أصبحت اليوم وكما يقول بعض المحللين إحدى المؤسسات التابعة للقوة الأكبر الولايات المتحدة الأمريكية.

ونعتقد أن تصحيح مسار التعارف الإنساني في هذه الهيئات الدولية أصبح ملحاً لأن ما يجري اليوم من حروب إقليمية وتهديدات بالحروب، يوحي بأن الوضع الإنساني أصبح في حالة قلق شديد وعدم استقرار نفسي. وأن الهيئات الدولية أصبحت مرهونة بسياسة القوى العظمى.

وما من شك أن العلاقات السياسية الدبلوماسية وكذلك العلاقات الثقافية والاقتصادية بين الدول هي شكل من أشكال التعارف الإنساني، ولعل تعميقها بشكل صحيح يؤدي إلى مزيد من التعارف والتعامل بشكل إيجابي يخفف من الأزمات والمشاكل بين المجتمعات البشرية.

وليس من الغريب أن نرى بعض الشخصيات العالمية والثقافية تلعب دوراً مهماً في الوساطات بين الدول والمجتمعات لما لها من أثر كبير في التقريب بين الشعوب والتعارف بينها. وقد وجد المجتمع الدولي فرصاً كثيرة ومهمة لهؤلاء الذين لا يألون جهداً في تحقيق السلام العالمي والأمن وتخفيف التوتر.

إن العالم اليوم ما يزال يواجه بعض الشرائح السياسية المتعصبة والعنصرية في عدد قليل من دول العالم. ولما كانوا يمثلون منطق القوة وحده فإن العالم معرض دوماً للخطر. ولذلك، فإن تقوية التعارف وترسيخه بين الشعوب لابد أن يؤثر على صانعي القرارات الذين يتحكمون بالقوة، وفي نفس الوقت يتصرفون حسب مصالحهم وليس حسب مصالح شعوبهم وشعوب العالم.

ونعتقد أن في العالم من الأشخاص والقيادات وحتى بعض المجتمعات من لا يريد أن يعم السلام والأمن في ربوع الأرض. وهم بهذا يعبرون عن عدائهم للتعارف الإنساني. لأنهم كالطفيليات التي لا تعيش إلا للتخريب والفتك في الأجساد. بل وإفساد ما هو سليم.

ثالثاً: أثر التعارف الإنساني
في توحيد الموقف الدولي
تجاه العنصرية والصهيونية والحرب الظالمة

لقد توحد العالم في نظرته للنازية والفاشية، فلماذا لا يتوحد في نظرته للعنصرية والصهيونية والحرب الظالمة؟

في عام 1975م، أعلن العالم في الجمعية العمومية مساواة الصهيونية بالعنصرية، ولكن، هذا العالم نفسه ناقض نفسه بنفسه عندما ألغى هذا القرار في بداية التسعينات، على الرغم من أن الصهيونية لم تغيّر شكلها ولا مضمونها.

هنا يأتي دور التعارف بين الشعوب في توحيد الموقف تجاه هذه المظاهر الفاسدة والظواهر الشاذة الخارجة على القانون الدولي. ونعتقد أن الموقف الجماهيري الذي اتخذته شعوب الاتحاد الأوروبي ما كان ليصل إلى هذا الموقف من ممارسات الاحتلال الإسرائيلي لولا التواصل والتعارف اللذان حصلا ويحصلان بين الشعوب الأوروبية وأبناء الشعوب العربية والإسلامية.

إن التعارف الإنساني يطرح نفسه بقوة أمام جميع شعوب العالم ليبين المظلومون ما وقع عليهم من ظلم. وليبين المقهورون مدى ما لحقهم من قهر على أيدي قوات الاحتلال أو المرتزقة أو ما شابه ذلك.

إن العالم اليوم ما يزال بحاجة لمزيد من التعارف والتواصل حتى يصل إلى الحد الأدنى من التصور الموحد تجاه العنصرية المكروهة والصهيونية الحاقدة وتجاه الحروب الإقليمية المنتشرة في فلسطين والعراق وأفغانستان والسودانوغيرها.

لننظر إلى قرار محكمة العدل الدولية الذي أدان إسرائيل بسبب بنائها الجدار العنصري في الأراضي الفلسطينية، ألم يسحب الغطاء الأخلاقي عن إسرائيل؟ ألم يجعل كثيراً من الشخصيات الفكرية والقانونية اليهودية يطالبون شارون بتغيير سياسته الإجرامية تجاه فلسطين؟

لماذا انحياز قرار المحكمة مع الحق؟ أليس ذلك مرده إلى التواصل السياسي والقانوني بين القضاة والحكام المنتسبين لعدد من الدول والأقطار؟ أليس دور التعارف في تكوين موقف موحد تجاه المشاكل العصرية الدولية؟

إن التقصير الذي يعم بشكل عام البعثات الدبلوماسية العربية والإسلامية أدى في أوقات كثيرة إلى وقوع الشعوب الغربية في مصيدة الدعاية الصهيونية الكاذبة المخادعة وكل ذلك عائد إلى عدم استغلال الوقت استغلالاً صالحاً إيجابياً في توضيح الموقف العربي الإسلامي تجاه تلك القضايا والمفاهيم.

وكم نادى المفكرون والسياسيون المستقلون في أوروبا بتفعيل الإعلام العربي والإسلامي في الأوساط الغربية كي تتضح الحقائق وتدفع الصهيونية وتحاصرها كما حاصرت العنصرية في جنوب أفريقيا وغيرها من المناطق.

رابعاً: أثر التعارف
في تخفيف معاناة الشعوب الفقيرة

يدرك أبناء الإنسانية اليوم أن العالم ينقسم إلى عالم اقتصادي يقوم على الصناعات الكبرى والشركات الأخطبوطية. وعالم فقير غالبية سكانه موجودون في أفريقيا وأمريكا اللاتينية وبعض دول آسيا.

والمرعب في الوضع الدولي أن العولمة جاءت لتزيد الفقراء فقراً، والأغنياء غنىً. وهذا الانقسام قد يؤدي إلى ازدياد الهوة بين الشعوب وتفجير الكبت والفقر حتى يصبح إرهاباً في بعض الأحيان وانتحاراً واقتتالاً في أحيان أخرى.

وعندما نضع التعارف كآلية للتواصل بين الشعوب فإننا ندرك أن العالم اليوم بحاجة إلى تغيير نظرته لمجمل أبناء البشرية. فلا يجوز أن يبقى الفقراء على ما هم عليه ولا يجوز أن ينعم الأغنياء ويزدادون رفاهية وسعادة.

فيكفي هذا العالم تلك الويلات التي أدت أحياناً إلى موت الملايين جوعاً في الكونغو أو إثيوبيا أو السودان أو غيرها. إن العالم اليوم يسير نحو الهاوية إن لم يبدأ جميع أبناء الشعوب بالتعارف الحقيقي بينهم.

فاللقاءات بين الشعوب تعرّف بعضهم بعضاً بالمعاناة التي تحيق ببعضهم وعلى الأطراف الأخرى أن تنقل صور تلك المعاناة حتى يبدأ أبناء الشعوب بتخفيف معاناة الفقر عن الفقراء، ولا يضير الدول الصناعية لو أنها بدل أن تؤجج الصراعات تساعد على إقامة السدود المفيدة على مياه نهر النيل ونهر النيجر أو الأنهر الأخرى في أفريقيا. وتساعد على إقامة الصناعات الزراعية التي تستقطب العمال الفقراء وتقضي على الفقر والبطالة.

وهذا التعارف البشري لا يقتصر على جانب الفقراء وحده، فهناك الجهل وهناك المرض وهناك الأمية، وكلها مشاكل تودي إلى تهلكة الشعوب. وحينما يكون التعارف الصادق سبيلاً للعمل الجاد من أجل القضاء على هذه الآفات فإن المستوى الحياتي للشعوب الفقيرة سيتغير ويتبدل إلى الأفضل.

لننظر ماذا يجري في بعض بلدان جنوب أفريقيا، لقد فتك مرض الإيدز بالملايين، وهو يهدد أمماً بأكملها. فهل يريد العالم أن تُباد هذه الشعوب وتفنى هذه الأمم؟ أم أن العالم اليوم مسؤول أمام الله وأمام مفهوم الإنسانية وأمام التعارف الإنساني ليساعد على تخطي هذه المشاكل القاتلة المنتشرة في بلاد الفقر والجهل والمرض والأمية.

إن التعارف الصادق يحفز الكثيرين من شعوب العالم المتقدم حتى يتطوعوا ويذهبوا لمساعدة الفقراء. في توزيع الأدوية عليهم أو مساعدتهم في توجيههم وصقل تربيتهم الصحية وإرشادهم. ودفعهم نحو التعلم والتثقف. وكم من البعثات الإنسانية الصادقة كان لها دور في رفع المستوى الصحي والتعليمي لدى بعض الشعوب الفقيرة والمتخلفة.

ومن الطبيعي جداً أن التعارف الإنساني يدفع المجتمعات جميعها لتحسين الوضع المعيشي والصحي وذلك لأن العلاقات الإنسانية إذا ما كرست أهدافها لرفع المستويات المعيشية للشعوب تتنامى آفاق التقدم وتقل المشاكل التي تعاني منها الشعوب.

إن الخبرة التي اكتسبها أبناء بعض الشعوب في التكيف المعيشي مع الواقع يمكن أن تنتقل إلى الشعوب الأخرى عبر الزيارات والوفود والندوات وعبر المشاركة العملية بين الناس كي يوجهوا خبرتهم تجاه الآخرين حتى ينفذوا البرامج المدروسة للحياة المعيشية في بلادهم. ويبدو أن ما تقوم به المؤسسات التابعة للأمم المتحدة في هذا المجال أصبحت محدودة الفعالية. في أفريقيا والعالم العربي تنتشر الأمية بشكل كبير

جداً، ولعل من أهم الأوليات لدى هذه المناطق القضاء على الأمية. أما كيفية تطبيق برامج محو الأمية فإنه يحتاج إلى تكاتف الشعوب مع بعضها لنقل الخبرات العملية في هذا المجال.

وليس توفير الكتب والكراسات ببعيد عن هذا الإطار. فالتعارف الإنساني يساهم بشكل كبير في المساعدة على صنع برامج واسعة لمحو الأمية. وذلك من خلال التعاون الوثيق بين الشعوب.

وما من شك أن التعارف الإنساني الحقيقي يؤثر بشكل كبير في تغيير الرؤية تجاه الحريات الاجتماعية والسياسية. فالعالم يؤثر ويتأثر ببعضه. وليس بالضرورة أن تنقل الشعوب نمطاً معيناً من الحريات. إنما لها الخيار في أن تختار ما يناسب بيئتها وتراثها وثقافتها وتتقدم نحو تحقيق الحريات السياسية والاجتماعية. .

ومن الطبيعي أن الحريات هذه تخفف من غلواء القبلية المنتشرة في كثير من بلدان العالم. إذ أن تجارب الشعوب تمنح الآخرين قسطاً من تجاربهم حتى يتخلصوا من الدكتاتورية والاستئثار وتغليب مصلحة فئة على أخرى.

وعبر العقود الأخيرة وجدنا أن التعارف الإنساني أدى إلى تبادل الخبرات بين الشعوب خاصة فيما يتعلق بالبناء العمراني الذي يخلص الكثير من الناس من العيش في أكواخ من الصفيح أو القش. فعشرات القرى والمدن تشهد تطوراً عمرانياً هائلاً. وكل ذلك بسبب التأثر والتأثير وبسبب التعارف الذي يحصل بين الشعوب.

ملحق:
مؤتمرات الحوار الإسلامي المسيحي

شهد القرن الماضي حركة قوية للحوارات بين الأديان خاصة بين الإسلام والمسيحية. ولاشك أن الدعوات لذلك الحوار جاءت استجابة للشعور الإنساني الذي أحبط بعد الحرب العالمية الأولى التي أودت بالملايين من أبناء البشرية، وأفرزت حالة من العداء بين المستعمرين وأبناء شعوب المنطقة العربية والإسلامية. ولما كانت الدول الاستعمارية في عشرينات القرن الماضي تمثل هجمة مسيحية غربية على الشرق فقد شعر المسلمون أن العداء يتجدد بين المسلمين والصليبيين الجدد. لاسيما أن الاستعمار البريطاني مال بثقله إلى جانب الصهاينة لإقامة دولة لهم على أرض فلسطين.

في ظل هذا الوضع تحركت جهات مسيحية أوروبية لفتح حوار مع الشرق الإسلامي لحل بعض المشاكل وفتح الأفق أمام شعوب العالم لتلمس بعض الحلول لتلك المشاكل.

واستمرت المؤتمرات في الانعقاد منذ عام 1926م، وحتى وقتنا الحاضر. واتسعت المناداة للحوار وكثر الداعون إليه.

وقد ساهمت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بشكل ملحوظ في الدعوة للحوار والتواصل والتعارف، فعقدت عدة ندوات ومؤتمرات شارك فيها علماء دين مسلمون ورجال دين مسيحيون. وقد استجابت دولة الفاتيكان لدعوات الجمعية، مما حرك آلية الحوار ودفع أبناء الشعوب للبحث الجدي عن قواسم مشتركة بينها.

وبالعودة إلى تاريخ الحوار الإسلامي المسيحي نستطيع أن نرصد المؤتمرات التالية:

1 - المؤتمر العالمي للأديان عام 1936م وعقد في جامعة لندن بتاريخ 3/ 7/ 1936 بإشراف المجلس العالمي للأديان. شارك فيه ممثلون عن مختلف الأديان في العالم أغلبيتهم من المسلمين والمسيحيين.

2 - المؤتمر العالمي للأديان عام 1937م وعقد في جامعة السوربون بإشراف المجلس العالمي للأديان وشارك فيه الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر.

3 - حوار القاهرة، باسم حوار دار السلام عام 1950م وأشرفت عليه الكنيسة الكاثوليكية في مصر بتوجيه من الفاتيكان.

4 - المؤتمر الإسلامي المسيحي الأول 1954م. وعقد في لبنان بتاريخ 22/ 2/ 1954 بدعوة من جمعية أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية. وحضره خمسة وعشرون من العلماء والمفكرين المسلمين وقد ناقش المؤتمر عدة قضايا أهمها القيم الروحية في الإسلام والمسيحية.

وتبين فيما بعد أن هدف المؤتمر كان تأسيس جبهة مسيحية إسلامية ضد الاتحاد السوفياتي.

5 - مؤتمر المجلس التنفيذي للجنة مواصلة العمل للتعاون الإسلامي المسيحي عام 1955 وعقد في الاسكندرية.

6 - ندوة المسيحية والإسلام في لبنان عام 1965م، وعقد في بيروت بدعوة من مركز محاضرات الندوة. وشارك فيه عدد من العلماء المسلمين وعدد من رجال الدين المسيحيين وقد بحثت الندوة عدة قضايا روحية واجتماعية واقتصادية وثقافية.

7 - اللقاء الإسلامي المسيحي التحضيري عام 1968م وعقد في جنيف في سويسرا بدعوة مجلس الكنائس العالمي. وشارك فيه ثلاثة من المسلمين من باكستان ومصر ولبنان.

8 ـ اللقاء التشاوري الإسلامي المسيحي عام 1969م، وعقد في جنيف بدعوة مجلس الكنائس العالمي وبحثت فيه عدة مواضيع أهمها التركيز على استمرارية الحوار المسيحي الإسلامي.

9 ـ مؤتمر النداء لتحقيق التفاهم والتعاون الإنساني عام 1972م. وشارك فيه 23 مسلماً و25 مسيحياً. ومثل المسلمون المشاركون نيجيرية ـ أندونيسيا ـ باكستان ـ الهند ـ لبنان ـ مصر ـ غانا ـ الجزائر ـ بنغلادش ـ وركز المؤتمر على موضوع التفاهم الإنساني. وتنظيم العلاقات بين المسلمين والمسيحيين. والعبادة في الإسلام والمسيحية.

10 ـ مؤتمر غانا عام 1974م، وعقد تحت شعار وحدانية الله ووحدة الجنس البشري بين المسلمين والمسيحيين الأفارقة.

11 ـ المؤتمر الإسلامي المسيحي الدولي عام 1974م. وعقد في مدينة قرطبة بإسبانيا بإشراف جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية في إسبانيا. وقد تمت فيه مناقشة عدة قضايا أهمها: رؤية المسلمين للعقيدة المسيحية، ورؤية المسيحية للدين الإسلامي.

12 ـ الملتقى الإسلامي المسيحي الأول عام 1974م وعقد في تونس بدعوة مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية. وشارك فيه عدد من المسلمين والمسيحيين. وبحث عدة قضايا مثل رسالة الدين في العالم المعاصر وقضية العنف والتقنية..

13 ـ مؤتمر التشاور للعمل المشترك في جنوب شرق آسية عام 1975م. وعقد في هونغ كونغ بدعوة مجلس الكنائس العالمي. وبحثت في المؤتمر قضايا عدة منها حاجة الجميع للحوار ومجالات الاهتمام المشترك بين المسلمين والمسيحيين.

14 ـ ندوة الحوار الإسلامي المسيحي عام 1976 وعقدت في طرابلس الغرب ليبيا بدعوة وزارة الخارجية الليبية والفاتيكان. وشارك فيها عدد كبير من الباحثين

وعلماء الأديان بلغوا 72 شخصاً وكانت الندوة تحت شعار (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) (النحل125). وكان الهدف من الندوة إيجاد جو من الثقة المتبادلة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي. وقد كان لهذه الندوة صدى واسع في العالم. وناقشت الندوة مسألة العدل الاجتماعي ثمرة من ثمرات الإيمان بالله تعالى. الأسس المشتركة بين الإسلام والمسيحية، ومواطن اللقاء في ميادين الحياة.

15 ـ وكان من أهم ما عقد من مؤتمرات وندوات وملتقيات الملتقى الثقافي الفكري الذي عقد تحت شعار لتعارفوا خلال الفترة من 20 – 22 من شهر الفاتح/ ايلول/ من عام 2003م والذي عقد على هامش الدورة الرابعة عشرة للمجلس العالمي للدعوة الإسلامية.

وقد أوصى الملتقى بتنظيم ورش عمل وندوات مصغرة في عدد من دول العالم لتحقيق التعارف والتعاون وفهم الآخر. من أجل تكوين صورة إيجابية وموضوعية متبادلة وإرساء قيم الحق والسلام في العالم.

ونتيجة لتوصيات هذا الملتقى فقد أقيمت في بريطانيا ندوة للتعارف في شهر الربيع/آذار من عام 2004م. وقد شارك فيها العديد من الشخصيات الإسلامية والمسيحية داخل بريطانيا وخارجها[1].

أما الملتقى الذي نظم تحت شعار لتعارفوا فكان أن تضمن محاور رئيسية أهمها التعارف المفهوم والمضامين. والآفاق، وثقافة التعارف. واحترام الخصوصيات الثقافية ثم التعارف وواقع الاختلاف. والتعارف حاجة للناس على اعتبار أن الله خلقهم شعوباً وقبائل، الاستخلاف في الأرض، والسلام العالمي بين قيمة التعارف وترسيخ التخالف[2].

(1) جريدة الدعوة الإسلامية، العدد 898 بتاريخ 17/ 3/ 2004.

(2) جريدة الدعوة الإسلامية، العدد 871 بتاريخ 10/ 9/ 2003.

وتجدر الإشارة إلى أن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية تبذل كل ما في وسعها لترسيخ الحوار والتعارف بين الشعوب وذلك من خلال العمل المتواصل على نشر مفهوم الحوار والتعارف الإسلاميين وكذلك من خلال اللقاءات التي لا تنقطع بين الجمعية وغيرها من الجمعيات العالمية الإنسانية والشخصيات الدينية في العالم الغربي.

الخاتمة

التعارف الإنساني بين الشعوب. هكذا نطرح هذا الهمّ الإنساني أمام العقل البشري حتى يدرك أننا ومنذ البدء لسنا مع أشكال الرعب والاسترهاب مهما كان مصدرها. ومهما كانت حججها.

لقد عانينا كثيراً، وحاق بنا الظلم على مدى عشرات السنين، وكان ما كان من التدافع بيننا وبين الغرب، ولم يبق أمام العقل المعاصر سوى أن يجد خلاصاً لمعاناة آخر مشكلة مستعصية على العالم، مشكلة فلسطين. التي تآزرت قوى عديدة لصنعها حتى يبقى العالم دائم الصراع، وبعيداً عن الحوار المجدي والنافع.

لقد أرادها بعضهم صراع حضارات وأديان وثقافات، وأرادها بعضهم الآخر صراع مصالح وكذا غيرهم وغيرهم.

واكتوى العالم كله بنار هذه المفاهيم وهذه الشعارات، حتى بدا وكأنه ينجرف نحو الهاوية والخراب. وكان نصيبنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ أكثر من غيرنا.

نصيبنا من القتل والإبادة والاحتلال والاستغلال.

نصيبنا من هدر طاقاتنا على أيدي القوى الخفية والمعلنة.

ونصيبنا من الاسترهاب، حتى بتنا نواجه أكثر من طرف، ونتصادم مع أكثر من قوة. ونحن منذ اتفاقيات الاستعمار على تقسيمنا وإفقارنا نعاني ما نعاني من المشاكل التي تُصدر لنا وليس لنا يدٌ في صنعها.

وحين نخرج من تحت الرماد لنبني مستقبلنا ومستقبل أجيالنا يفتعلون لنا مزيداً من الأزمات ومزيداً من الضغوطات حتى نستنزف ولا نقدر على الوقوف ثانية.

لماذا؟

لأن عقلية التصادم راحت تتحكم في الاتجاهات الفكرية المتطرفة، والاتجاهات السياسية التي تفتقر أقل ما تفتقر إلى المعايير الأخلاقية وليس إلى معايير المصلحة المكيافيلية.

وفي ظل هذه الأفكار التصادمية، أبرزوا مصطلح الإرهاب وعمموه في العالم حتى بدا العقل الإنساني مجرداً من أي تفكير سوى التفكير بهذا الإرهاب، والبحث عن حلول جذرية له.

ربط الكثير من زعماء العالم مصير انتخاباتهم بمصير الإرهاب، وأصبح البرنامج السياسي لكل زعيم يستند على هذه الشمّاعة التي يسمونها الإرهاب، تتنافس الأحزاب فيما بينها وتجد على رأس قائمة برنامجها أو برامجها القضاء على الإرهاب. صنعوا منه القوة الخفية الثانية التي تهدد العالم وتتحكم به بعد الولايات المتحدة الأمريكية.

وتناسوا في هذا الخضم كل أنواع الإرهاب العنصري وكل أنواع الإرهاب الديني والفكري وركزوا سهامهم على إرهاب واحد هو الإرهاب الذي نسبوه للإسلام والمسلمين.

وهكذا أصبح الطريق إلى التفاهم ملغماً، وأصبح السبيل إلى التعارف مهزلة وسخرية وقد شقوا العالم إلى عوالم، عالم صناعي، عالم متخلف، عالم متمرد، وعالم مطواع، عالم يستحق الحياة، وآخر لا يستحق الحياة.

وراحوا يصنعون في مخابرهم ما يسمى العولمة.

فهموها حسب نواياهم. ولكننا فهمناها على أنها الطريق الرأسمالي للقضاء على أي تفكير جماهيري في التقدم والتخلص من التخلف والانحطاط.

فهموها على أنها تلغي الفوارق الطبقية والدينية والثقافية، وفهمناها على أنها إلغاء للتراث وللهوية وللشخصية.

أفصحوا عنها بإلغاء الأديان المحلية. وأفصحنا عن رفضنا لها لأنها تريدنا بلا دين وبلا قومية وبلا عروبة.

وانساقوا وراء شعارات أسطورية لاهوتية فدب الرعب في نفوس أبناء العالم لأن ما يسمى باللاسامية راحت تنتشر وتستشري. وما عرفوا أن التلفيق والخداع وكل

هذه الأحابيل أنها صناعة حركة منبوذة في أفكارهـا . منبـوذة فـي دعاتـها وأشـخاصها ومروجيها .

ومـرة بعـد أخـرى ، يتصـدون للأفكـار الإنسـانية الداعيــة إلــى الحــق والعــدل والمساواة بين الشعوب فيلوون عنقها ليقولوا إن وراء الحق باطلاً وإن وراء العدل ظلماً وإن خلـف المسـاواة تعصباً وعنصريـة ، وتناسـوا عـن قصـد مصــدر البـاطل والظلـم والتعصب والعنصرية ، فماذا نقول لهم؟

إن قرآننا الذي أُنزل بلسان عربي مبين يدعو أبناء الإنسانية للحـوار والتعـارف ، وهـذه الدعـوة ليسـت مـن اختراعنـا ، إنمـا الـذي رسـمها رب العـالمين رب الإسـلام والنصرانية والموسوية والزرادشتية والهندوسية ، وكل ما على الأرض يدب ويسعى .

قلنا تعالوا نحترم بعضنا لا نظلم ولا نُظلم ، لا نستعمر ولا نُسـتعمَر . لا نرهـب ولا نُسترهب . تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم لنتعرف إنسانياً علـى بعضنـا بعضـاً . فما زال فـي الوقـت متسـع لنتـدارك التهلكـة الإنسـانية العامـة والشـمولية . وقـد حـان الوقت حتى يراجع العقل البشري نفسه ، ويحاسب نفسه بنفسه علـى أخطـاء ارتُكبـت وما زالت ترتكب بحق الفقراء والمرضى والأميين . بل وبحق شعوب وأمم بأكملها .

ننطلق مـن مبـدأ المسـاواة فـي الخلـق ، فطالمـا يفـهم الإنسـان أخـاه الإنسـان ولـو بالإشارات والإيمـاءات طالمـا هنـاك حـس فطـري بـهذه الإنسـانية المتميـزة عـن الحيـوان والحشرة والجماد .

الكل سواسية أمام الخالق ، فلا فضل لأحد على أحد ، ولا فضل لشـعب علـى شعب ولا فضل لعقيدة على أخرى ، كل يعتقد معتقده ، وكل يفكر تفكيره .

لا إكراه في الدين ولا مكان للسيف أو الرصاصة حتى تصـير الأمـم كلـها علـى دين واحد أو عقيدة واحدة .

ومـا يعجبـك لا يعجبنـي ولكـن الإعجـاب بالشـيء أمـر خـاص شـخصي فـلا أكرهك على الإعجاب بما يعجبني . ولا تكرهني على الإعجاب بمـا يعجبـك . ولكننـا

نتحاور ونتعارف ونتصارح لماذا يعجبك ولماذا يعجبني. ولماذا لا يعجبك ولماذا لا يعجبني. وهل هناك أسباب يبررها العقل لهذا الإعجاب أو ذاك؟

عندما ندرك شيئاً كبيراً من حقيقة نفوسنا وما تربينا عليه، ندرك حقيقة تربيتنا وتراثنا، وندرك ما الذي جعلنا نحكم على الأمور بهذا المنظار أو ذاك. أليس التعارف مدعاة لتصحيح المفاهيم؟ أليس التعارف سبباً في سيادة المفاهيم الصحيحة ونبذ المفاهيم الخاطئة.

ماذا أعرف عنك وماذا تعرف عني؟ هنا تكمن المشكلة ويكمن الحل. فبقدر ما نعرف بعضنا بقدر ما نستطيع التوصل إلى قاسم مشترك ينفع الجميع. أما إذا بقينا أسيري المواقف المسبقة والجاهزة سلفاً حتى نحكم على الأمور وعلينا فإن ذلك سيكون باباً للتصادم والقطيعة.

لقد تراكمت في عقولنا ونفوسنا صور عشرات السنين من التصادم والدماء وسفك الأرواح وإزهاقها، تراكمت صور الحروب الإفرنجية الدامية، اقتحام القدس ومجازر أنطاكية وطرابلس. وتراكمت صور محاكم التفتيش التي راح ضحيتها مئات الألوف من المسلمين وتراكمت في عقولكم صور الحرب العالمية الأولى وكذلك الثانية، أربعون مليوناً من البشر يُقتلون على مدى ست سنوات. ولم تتوقف الصور في فيتنام وفلسطين وكوريا والعراق وأفغانستان.

ملايين الصور السوداء التي صنعها المتطرفون والعنصريون ظلت تحكم هذا العقل البشري وما تزال. فيكفي العالم اندثار الحضارات والعمران. يكفي العالم حروب القبائل والأديان وحروب الثقافات. وحروب الإيدز والفقر والأمية.

لقد نظّر الشاذون للخلاص النهائي من بعض شعوب العالم. واعتبروهم فائضاً بشرياً يجب أن يُباد. فماذا لو بقي العالم لشعب واحد أو لأمة واحدة أو لفئة واحدة؟ هل يصح أن نرفض ناموس الخلق الذي أراده الله لتعمير هذا الكون؟ أم

نسعى لتنظيم الحياة الكونية فتتنازل شيئاً ما عن ثرواتنا ونرفع من مستوى تلك الشعوب التي تحب الحياة كما نحبها؟

إن العالم اليوم يسير سريعاً سريعاً نحو تحمل المسؤولية المشتركة، فلا يحق لفئة ضالة تمتلك السلاح والمال أن تهدد هذا التواصل الإنساني الذي هو الطريق الأمثل لتقدم بني البشرية.

لذلك،

ومن أجل تحقيق الغاية الإلهية التي طلبها منا، نسعى سوياً للتعارف والتحاور.

ومن أجل راحة الضمير وراحة النفس وإلغاء القلق والرعب والخوف من الآتي، ندعو دعوتنا الصريحة والصادقة لنتعارف ونمد قلوبنا وعقولنا قبل أن نمد أيدينا لنتصافح وتنكشف شفافة. يمتزج فيها الظاهر والمخفي، ليسود الإنسانية عالم من المحبة والغيرة. وإحقاق الحقوق مهما بلغت ومهما كثرت ومهما حاول الشاذون تزييفها وحرفها عن مسارها.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- سيرة ابن هشام .
- السيرة النبوية ، محمد الصلابي
- محمد فارس بركات ، الجامع لمواضيع القرآن الكريم ، دار قتيبة ، دمشق 1985 .
- محمد فارس بركات ، المرشد إلى آيات القرآن الكريم ، دار قتيبة ، دمشق 1985 .
- التوراة ، طبعة دار الكتاب المقدس ، دمشق بيروت 1978 .

الفهرس

مقدمة 5

الفصل الأول : التعارف مبدأ إسلامي راسخ 15

أولاً: مفهوم التعارف في القرآن الكريم ومنهجه 17

ثانياً: التذكير بأساس الخلق وعبادة الله سبحانه 23

ثالثاً: كيف طرح القرآن مفهوم الحوار مع أهل الكتاب؟ 30

منهج التعارف الإنساني في السيرة النبوية 35

مسار التعارف الإنساني في تاريخ المسلمين 40

الفصل الثاني : كيف نفهم التعارف الإنساني اليوم وفي المستقبل 43

أولاً: كيف نفهم التعارف الإنساني؟ 45

التعارف الإنساني: تكافؤ المتعارفين 50

التعارف الإنساني لأجل المصالح المشتركة 56

تعدد الثقافات والاعتراف بثقافة الآخر 60

التعارف حوار مع المسيحية أم حوار مع الغرب؟ 71

الفصل الثالث : التعارف وكسر الحواجز 77

أولاً: التعارف وكسر الحواجز 79

ثانياً : التعارف الإنساني وإعادة النظر إلى التاريخ 86

ثالثاً: التعارف وإعادة النظر في المفاهيم المنحرفة 92

التعصب الديني والمذهبي 97
الإرهاب خلاف مستحكم على المدلول 100
العولمة في وجه التعارف الإنساني البنّاء 117
هل تبقى اللا سامية سيفاً مسلطاً على التقارب بين الشعوب؟ 122
الفصل الرابع : آليات التعارف المعاصرة 133
البحث عن المفاهيم الصحيحة وإزالة المفاهيم الخاطئة 146
الفصل الخامس : آثار ونتائج 151
أولاً : أثر التعارف على السلوك الإنساني 163
ثانياً : أثر التعارف الإنساني في تخفيف التوتر الدولي والعداء بين الشعوب ... 168
ثالثاً : أثر التعارف الإنساني في توحيد الموقف الدولي
تجاه العنصرية والصهيونية والحرب الظالمة 170
رابعاً أثر التعارف في تخفيف معاناة الشعوب الفقيرة 172
ملحق : مؤتمرات الحوار الإسلامي المسيحي 175
الخاتمة 181
المصادر والمراجع 189
الفهرس 191

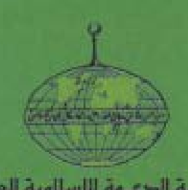
التعارف الإنساني بين الشعوب،
هكذا نطرح هذا المبدأ الإنساني أمام العقل البشري حتى يدرك أننا ومنذ البدء لسنا مع كل أشكال الرعب والاسترهاب مهما كان مصدرها ومهما كانت حججها.

ننطلق من مبدأ المساواة في الخلق، فطالما يفهم الإنسان أخاه الإنسان، ولو بالإشارات والإيماءات، طالما هناك حس فطري بهذه الإنسانية، لابد إذاً من التعارف

لقد عانينا كثيراً وحاق بنا الظلم على مدى عشرات السنين، وكان ما كان من التدافع بيننا وبين الغرب ولم يبق أمام العقل البشري سوى أن يجد خلاصاً لمعاناة أكبر مشكلة إنسانية مستعصية على العالم، مشكلة العدالة والمساواة بين البشر.

فحقٌ على الشعوب وهي تتعارف وتتحاور أن تدرك أن العدالة لها ميزانها الإلهي، ولها أثرها على الأرض.

فحلها يعني فتح باب الحوار مع الجميع حتى يسود الوفاق والسلام العالم.



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية